الفصل الثالث:

القرآن هو المصدر المُنْشِئُ والسُّنَّةُ هي البيان التطبيقي

مقدمة

اختار الله ﷻ رسله واصطفاهم من البشر للتبليغ، ومن الملائكة في حمل الرسالات منه إلى أنبيائه، وحين جادل المشركون كثيرًا في بشريَّة الرسول، وجعلها شبهة من أهم الشبهات التي تعللوا بها للتكذيب بالرسل فيما جاءوا به، واقترحوا أن يكون الرسل من الملائكة؛ إذ إنَّ البشر متساوون، ولا ميزة لواحد على آخر، أمَّا الملائكة فهم من عالم الغيب، ولذلك فإنَّ من الممكن -آنذاك- أن يصدقوا بأنَّهم مرسلون من الله ﷻ، وأنَّهم يحملون رسالة منه إلى البشر لأنَّهم ملائكة. ويتصور المشركون أنَّهم متميزون عن البشر، وأنَّ من اللائق بهم أن يحملوا رسالات الله إليهم فرد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأنعام: ٨)، وعدّ هذا الاقتراح والشبهة التي قام عليها نوعًا من اللُّجَاجِ والسُّخْرِيَّةِ التي عُرِفَ المشركون بها، فلقد قالوا في اعتراضهم على اختيار رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الفرقان: ٧)، رد الله ﷻ عليهم وبيَّن سَخَفَهُمْ فقال تعالي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل: ٤٣)، وبيَّن أنَّ رسول الله لم يكن بِدْعًا من الرسل، ولذلك فهو رجل من الرِّجَالاتِ الذين اصطفاهم الله لرسالاته وكلامه.

والحكمة في ذلك متعددة الجوانب وأهمها أن يكون الرسول قادرًا -وهو بشر مثل الناس- على التواصل معهم، وعلى تقديم حلول إلهيَّة المصدر بشريَّة التطبيق لمشكلاتهم، فالبشر أقدر بكثير على ممارسة مهام الاتصال ببشر من أي مخلوق آخر، وهو الأقدر على أن يكون قدوة، ونموذجًا، ومثالاً، وهاديًا، ومبشرًا، ونذيرًا؛ لذلك فإنَّ للرسل جانبين: جانبًا غيبيًّا وهو جانب الاتصال

بالله وملائكته وتلقي رسالاته. وجانبًا بشريًّا يحقق الرسالة الاتصاليَّة مع بشر من جنس الرسول ونوعه، فيبيِّن لهم ويكون شاهدًا عليهم، وقادرًا على تقديم كل ما يُعِينُهُمْ وَيُهَيِّئُهُمْ لقبول رسالات الله وحسن تطبيقها، والإقبال على استيعاب معانيها، والاهتداء بها، والاقتداء به في كل ما يأخذون، ويدعون من هذه الأمور.

وكم كان الصِّدِّيقُ ﷺ رائعًا في موقفه بعد وفاته ﷺ حين أعلن للناس: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيٌّ لا يموت،"[1] ليذكر الناس بقوله تعالي: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وكم كان رسول الله ﷺ حريصًا على أمته، رؤوفًا ورحيمًا بها حين نهى أصحابه عن أن يشوبوا القرآن بكلامه أو أحاديثه. وكم كان خلفاؤه الراشدون حكماء في التزامهم الدقيق بأوامره ﷺ في هذا الجانب. فأقلوا الرواية عن الرسول ﷺ وأمروا بالإقلال منها، وشددوا في وسائل الاستيثاق من صحة أي شيء يُرْوَى مما تدعو الحاجة إلى روايته بيانًا للقرآن، وتوضيحًا لعمليَّات تطبيقه، وممارسة شريعته في واقع الحياة البشريَّة.

ومن هنا فإنَّ العلاقة بين الكتاب والسنَّة قد رسمها الله ﷻ بمنتهى الدقة وَبَيَّنَهَا رَسُولُ الله ﷺ بأوضح البيان. فالكتاب الكريم هو المَصْدَرُ المُنْشِئُ للأحكام والكاشف عنها، وهو تبيان لكل شيء ذي علاقة بها، الذي ينشئ المبادئ العامة، ويُبَيِّنُ ثَوَابِتَ الدِّينِ التي جاء الأنبياء كَافَّةً بها، والكليَّات والقواعد التفصيليَّة التي تستوعب سائر الجزئيَّات، ومفردات الحياة الإنسانيَّة سواء تعلقت بضروريَّات الإنسان أو حاجيَّاته، أو كماليَّاته.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، حديث رقم (٤١٨٧).

وهذا المصدر هو القرآن المجيد حصرًا لم يختلف فيه المسلمون أو عليه بمن فيهم القائلون بإمكان استقلال السنَّة في التشريع؛ لأنَّ ما ذكروه راجع عند النظر والتدقيق إلى كليَّات القرآن، والقرآن المجيد -في الوقت ذاته- هو الكاشف عن أحكام الله -تعالى- لذلك كان حصر عَمَلِيَّتَي الإنْشَاءِ والكشف فيه تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(يوسف: ٤٠-٦٧) والأنعام: (٥٧-٦٢) والقصص: (٧٠-٨٨).

والقرآن المجيد قد نَصَّ على أَنَّهُ "تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ" قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ (النحل: ٨٩).

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ (المائدة: ٤٨-٥٠)، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ (آل عمران: ٢٣).

وأمَّا رسول الله ﷺ فهو يتلو القرآن، ويتبعه، ويعلمه للناس، ويبلغهم آياته، ويريهم كيف يحولون ما جاء به إلى منهج حياة، ونظام يحكم كل تصرفاتهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم، فلذلك كان ﷺ خلقه القرآن وعبادته القرآن، وسيرته وسنَّته القرآن فهو مُتَّبِعٌ له تَالٍ لِآيَاتِهِ فهي الْمَضْمُونُ الذي يُعَلِّمُهُ لِلنَّاسِ ويُزَكِّيهِمْ به، ويجعل منهم أهل حِكْمَةٍ بِاتِّبَاعِ ما جاء به، والجانب البشري في رسول الله ﷺ يُمَكِّنُهُ من كل ما تقدم وهو يعلم الناس كيف يتبعون آيات الكتاب ويرتقي بهم إلى التزكي، ويبيِّن لهم أن تحويل آيات الكتاب ومَضَامِينِهَا إلى ممارسة حَيَاتِيَّةٍ أَمْرٌ ممكن؛ لأنَّه ﷺ باتباعه للقرآن وبتأويله له في الواقع مُمَارَسَةً

وَتَطْبِيقًا بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وقد تمكَّن من أن يجعل حياته كلها ومُمَارَسَاتِهِ كُلَّهَا وأفعاله وتصرفاته جميعها بمثابة تأويل وتفسير وتطبيق لآيات هذا الكتاب الكريم.

ولذلك فإنَّ ما يقال له: سنَّة رسول الله ﷺ، إنَّما هي في حقيقتها تعبير عن الاتباع، والممارسة، والبيان، والتطبيق النَّبَوِيِّ لما جاء به الكتاب؛ ولذلك قال تعالي: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥).

لأنَّ ما سيحكم به ﷺ إنَّما هو حكم الكتاب، والكتاب كتاب الله وكلماتُه وقد أكَّد القرآن على هذا المعني في قوله تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية (المائدة: ٤٨) ما أكثر الآيات التي صورت أمر رسول الله ﷺ باتباع ما أُنْزِلَ إليه والسير بمقتضاه لأنَّه تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ورسول الله ﷺ باتباعه، وتطبيقه يُبَيِّنُ للناس أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ، وَأَتَمَّ وَأَكْمَلَ مَنَاهِجِ التَّطْبِيقِ لآيات الكتاب الكريم؛ ولذلك أمره الله ﷻ أن يلخص للناس ما جاء به بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (النمل: ٩١-٩٢).

أولاً: مفهوم الوحي

إنَّ لتحديد مفهوم الوحي أهميَّة كبرى في تحديد "مفهوم السُّنَّةِ"، وفهم علاقتها بالقرآن؛ ولذلك لابد من تحري الدقة في تعريفه؛ لنتجاوز ذلك التساهل الذي سمحَ أن يُدْرَجَ تحت مفهوم الوحي كل ما صدر عن النبي ﷺ من قرآن أو ما أُطْلِقَ عليه من سُنَّةٍ من أحاديث، وأخبار، وآثار فيما بعد بقطع النظر عن تحديد الاختلافات بين القرآن الذي لم يكن للنبي ﷺ فيه إلا اتِّبَاعُ قُرْآنِهِ ووحيه وقراءته وتلاوته على الناس كما أنزل عليهم؛ فهو ما عرَّفه الأصوليُّون بأنَّه: كلام الله المتعبَّد بتلاوته المتحدَّى بأقصر سورة منه المعجز

للبشريَّة كلها. أمَّا نحن فنعرفه بأنَّه: كتاب الله الذي أنزله -جل شأنه- على قلب عبده ورسوله ونبيه المفتتح بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس، فهو أربعة عشر ومائة سورة، في حين أن بقيَّة ما صدر عن رسول الله من أقوال وأفعال وتقريراتٍ يتفق الجميع بأنَّها صدرت عن اعتبارات مختلفة، ففي أفعاله ما هو جِبِلِّيٌّ طَبِيعِيٌّ وما هو تطبيق للقرآن الكريم وتوجيهاته وما هو صادر وفقًا للوظائف التي كان يؤديها ﷺ من إمامة وقضاء وإفتاء وتعليم وتوجيه وتشريع، ولا شك أنَّ بعض ذلك يعد من قبيل "النِّسْبِيِّ" المُرْتَبِط ببيئته -عليه الصلاة والسلام- وبعضه يعد في دائرة الخصوصيَّات له ولبعض الأصحاب، وَبَعْضُهُ تَشْرِيع مطلق دائر حول القرآن يستمد إطلاقيَّته منه، وإذ ما لم يَجْرِ هذا التَّمْيِيزُ وَالفَرْزُ؛ يبقى الجدل دائرًا وَمَوْضِعَ النِّزَاعِ غَيْرَ مُحَرَّرٍ ولا مفهوم، وبعد أن ننتهي من تحديد "الوحي" في القرآن وفي السنَّة، وفي علم التوحيد، فإنَّا سنكون قد أوضحنا جانبًا أساسيًا من جوانب هذه الإشكاليَّة التي ينبغي أن تصحح المفاهيم الأخرى وفقًا له.

١- ما معنى الوحي؟

قال الراغب الأصفهاني:[1] "أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمُّن مفهومه السرعة قيل "أمر وحي" وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ (مريم: ١١)، فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: فَعَلَ شيئًا عُدَّ واعْتُبِرَ وَحْيًا.

- وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام: ١١٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٢١)، فذلك مُفَسَّرٌ بالوسواس المشار إليه بقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ (الناس: ٤).

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٥١٥.

ويقال للكلمة التي تلقى إلى أنبياء الله ورسله "وحي"، وذلك يحدث على أَضْرُبٍ حسب ما دل عليه الآيات الآتية:[1]

أ- وذلك إما برسول مُشَاهَدٍ تُرى ذَاتُهُ ويُسْمَعُ كَلامُهُ كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صورة مُعَيَّنَةٍ عن عائشة -رضي الله عنها- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانًا يأتيني مِثْلَ صَلصَلَةِ الجَرَسِ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وقد وَعِيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فَأَعِي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا."[2]

ب- وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله ﷻ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ (طه: ١٣).

ت- وإما بتسخير نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل: ٦٨-٦٩).

---

(١) إنَّ محاولة الراغب الأصفهاني الفذة في أهم كتبه القليلة "**مفردات غريب القرآن**" لبيان مفهوم "الوحي" قرآنيًا تعد مفتاحًا معرفيًا هامًا في عملية دراسة المفاهيم القرآنية، وذلك أن ما اتبعه الراغب الأصفهاني في دقة تتبع المفهوم ووضوحه، وذلك في بناء لبنات المفاهيم القرآنية ابتداء من تتبع المعنى اللغوي، الذي هو الأساس والمنطلق باتجاه بناء المفاهيم والمصطلحات بناء سليمًا، ثم حاول الراغب إقامة المفهوم، ثم تتبع استعمالات القرآن الكريم الذي لا يضل من اتبعه، وهذا الذي توصل الراغب إليه من أفضل وأهم ما ذكر في مفهوم "الوحي" وفي معانيه المتعددة التي اشتمل عليها بالنسبة للمؤمنين به؛ إذ هو ظاهرة غيبية. فالوحي الإلهي أمر غيبي، فالله ﷻ يصطفي من يشاء لتلقي وحيه من عباده، ويصطفي ملكًا يتلقى وحيه عنه وينزل به إلى رسله وأنبيائه ليبلغوه بدورهم إلى أممهم، وهذا الملك قد يأتي الرسول بهيئته الملائكية وقد يأتيه بهيئة أخرى. والمؤمنون يؤمنون بأن الملك يأتي الرسول والنبي واقعًا حقيقة لا تخيلاً، ويقظة لا منامًا فحسب.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، باب، ح٢، ص٢١.

ث- أو بمنام كما قال ﷺ عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة."[1]

جـ- وإما بإلهام نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...﴾(القصص: ٧)، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ (طه: ٣٨-٣٩).

الإلهام في اللغة:

اللَّهْمُ من الابْتِلاعِ، وَلَهِمَ الشَّيْءَ لَهْمًا وَالتَهَمَهُ: أي ابْتَلَعَهُ بمرة، واللِّهَمُ: العَظِيمُ، ورجل لِهَمٌ كَثِيرُ العَطَاءِ، وَأَلْهَمَهُ خيرًا أي لَقَّنَهُ إياه، والإِلهَامُ: ما يُلقَى في الرُّوعِ[2] بطريق الفَيْضِ ويختص بما هو من جهة الله والملأ الأعلى، ويقال: إيقاع شيء في القلب يَطْمَئِنُّ له الصَّدْرُ يَخُصُّ اللَّهُ به بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ، وَاسْتَلهَمَهُ إياه سَأَلَهُ أن يُلهِمَهُ قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ (الشمس: ٨)، وكقوله ﷺ: "إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي..."[3]

وعرفه ابن سينا: بأنه: "ما يُلقِيهِ العَقْلُ الفَعَّالُ في نفس الإنسان المُؤَيَّدَةِ بِشِدَّةِ الصَّفَاءِ، وشِدَّةِ الاتصال بالمبادئ العقلية."[4]

عرف صاحب جمع الجوامع الإلهام بأنه: "إيقاع شيء في القلب يُثْلَجُ لَهُ الصَّدْرُ يَخُصُّ به الله ﷻ بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ، وهو ليس بحجة لعدم ثقة من ليس

---

(١) المرجع السابق، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، ح٦٩٨٧، ص١٣٣٥.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١٢، ص٥٤٧ وما بعدها. وانظر أيضاً:
- الفيروزبادي. **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ج٤، ص١٥١ وما بعدها.
- الزبيدي، **تاج العروس**، مرجع سابق، ج٩، ص٦٨ وما بعدها.
- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٤٥٥.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٤٥٥.
- الزبيدي، **تاج العروس**، مرجع سابق، ج٩، ص٦٨.

(٤) صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨م، ج١، ص١٣١.

معصومًا بخواطره، خلافًا لبعض الصوفية في قوله أنه حجة في حقه، أما المعصوم كالنبي ﷺ فهو حجة في حقه وحق غيره إذا تعلق بهم كالوحي."[1]

أما عند الصوفية: فالإلهام هو: "النفث في الرُّوعِ، والإيقاع في القلب من العلم غير القائم على الاستدلال والنظر."[2]

إن النُّبُوَّةَ أَمْرٌ غيبي، وجُزْءٌ من أمر ربي، فإذا أُرِيدَ تَقْرِيبُ صُورَةِ إِدْرَاكِهَا إلى الأذهان على المستوى التعليمي فلا ينبغي أن تزال عنها صِفَةُ الغَيْبِ، بل لا بد من الإيمان بها بصفتها الحقيقية الغيبية التي يُكَرِّسُهَا التحدي والإعجاز والعصمة.

ويقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد عن معنى الوحي: "وقد عَرَّفُوهُ شرعًا أنه إعلام الله ﷻ لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه مِنْ قِبَلِ الله ﷻ بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وِجْدَانٌ تستيقنه النَّفْسُ وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور." وقد بَيَّنَ ابْنُ تَيْمِيَةَ شُرُوطَ الإِلهَامِ بوصفه منهجاً للمعرفة بقوله: "إن الذين أنكروا كون الإلهام طريقًا للمعرفة على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ من جعله طريقًا شرعيًا على الإطلاق، وإنما يكون فيما إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحًا وأُلهِمَ حينئذ رِجْحَانُ أَحَدِ الفِعْلَيْنِ، مع حُسْنِ قَصْدِه، وعِمَارَتِهِ بالتقوى، فإلهامه دليل في حقه؛"[3] أي لا يفرض على غيره إلا بدليل عقلي يعضده، وبذلك يكون الإلهام مما يستأنس به طالما كان في دائرة ما أحله الله في شرعه، أما إن كان لا أصل له في الشريعة أو مما حرمه الله فهو مردود مطلقًا.

(١) العطار، حسن. **حاشية العطار على جمع الجوامع**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٣٩٨.

(٢) الحفني، عبد المنعم. **معجم مصطلحات الصوفية**، بيروت: دار السيرة، ط١، ١٤٠٠هـ، ص٢٣.

(٣) الحراني، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، المنصورة: دار الوفاء للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ط٣، ج١٠، ص٤٧٣.

يقول محمد رشيد رضا عن الفرق بين الإلهام والوحي الإلهي: "إن ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي، وهو الذي فسره الفلاسفة الإلهَامَ الفَائِضَ من استعداد النفس العالية، ... فصار الخِلافُ بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضًا منها كما يظنون[1] وفي وجود ملك روحاني نزل من عند الله على النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥). بينما الإلهام والتسخير والمنام: دل عليه قوله ﴿ أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١) وتبليغ جبريل في صورة معينة دل عليه قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ... ﴾(الشورى: ٥١).

- وأمَّا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ... ﴾(الأنعام: ٩٣)، فذلك من يدعي شيئا من أنواع ما ذكرناه من الوحي أي نوع ادعاه من غير أن يكون قد حصل له.

- وأمَّا قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، فهذا الوحي عام في جميع أنواعه، وذلك أن معرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختص بِأُولِي العَزْم من الرسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فإذًا القصد من الآية تنبيه أنه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته.

- وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ... ﴾ (المائدة: ١١١)، فذلك وحي بواسطة عيسى عليه السلام. وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يونس: ٨٧)، وقال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١) رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص٢٦ وما بعدها.

(طه: ٤٧-٤٨)، فوحيه إلى موسى بوساطة جبريل ووحيه إلى هارون بواسطة جبريل وموسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٧٢-٧٣).

ومن الوحي المختص بالنبي ﷺ: قوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٦)، ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الكهف: ٢٧)، ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الزمر: ٦٥)، ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢)، ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ... ﴾ (الزخرف: ٤٣-٨٩). وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٣).

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الشورى: ٣)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف: ١١٠)، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (فصلت: ٦-٧)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟

خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ٧-٨)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل: ٤٣)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٩).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٩)، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأنعام: ١٩)، ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ (يونس: ٢)، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ (النجم: ٩-١١)، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف: ٣)، ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ (النساء: ١٦٣).

وحي مختص بالملائكة: وقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأنفال: ١٢)، فذلك وحي لهم بواسطة اللوح والقلم فيما قيل، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا...﴾(فصلت: ١٢)، فإن كان الوحي إلى أهل السماء فقط فالموحى إليهم محذوف ذكره، كأنه قال أوحى إلى الملائكة؛ لأن أهل السماء هم الملائكة، ويكون كقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ...﴾ (الأنفال: ١٢)، وإن كان الموحى إليه هي السماوات فذلك تسخير عند من يجعل السماء غير حي،

ونطق عند من جعله حيا، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ (الزلزلة: ٥) فقريب من الأول وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾(طه: ١١٤)، فحث على التثبت في الاستماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه.

لقد بقي مفهوم الوحى نقيًا سليمًا يحول وضوحه ونقاؤه بين المسلمين وقبول أية دعاوى أو مفتريات يمكن أن تصدر عن أناس قد يخلطون مفهوم الوحي بسواه بشكل يؤدي إلى اتهام الناس وإضلالهم عن الصراط المستقيم. صحيح أنَّه قد حدثت دعاوى كثيرة عبر التاريخ من بعض غلاة الباطنية؛ من أن الرسالة وإن ختمت وتوقف الوحي ولكن النبوة مستمرة ولها وحي خاص مستمر كذلك.

وزعم آخرون أنَّ هناك أنواعاً من الوحي قد يصل إليها الإنسان بالرياضات النفسية وما إلى ذلك، وأنَّها تأخذ شكل إلهام أو عرفان أو أى شكل آخر، وفي عصرنا هذا حاول مفكرون أن يسوُّوا بين الأنبياء وبين العباقرة، لتسييل مفهوم الوحي وإبعاده عن الثبات، فقالوا بأنَّ الأنبياء طبقة من الأذكياء تنعكس على أدمغتهم طموحاتهم الواسعة وتطلعاتهم وما إلى ذلك فتجعلهم يتقمصون أمورًا، ويتخيلون أشياء عن أنفسهم وأممهم وشعوبهم، ويعملون من خلال ذلك على تجسيد آمالهم وطموحاتهم وآمال شعوبهم، ويطلقون على ذلك وحيا أو إلهاما ليفرضوا على الجماهير الثقة بهم وبما يدعون إليه.

ولذلك وجدنا بعض القيادات الفكرية المعاصرة قد موهت على أتباعها هذا المفهوم ومزجته بمفاهيم العبقرية والقيادة، إمعانا في الهيمنة على عقول الجماهير والسيطرة عليها، حدث ذلك من الماركسيين ومن ميشيل عفلق وأتباعه ومن آخرين. وقد تجرأ الشاعر نزار قباني على نظم قصيدة في الرئيس الراحل عبد الناصر يرثيه بها مطلعها "قتلناك يا آخر الأنبياء" وكتب الرئيس الراحل أنور السادات حين كان رئيس تحرير جريدة الجمهورية مقالة للانتصار للوموميا بعنوان "لومومبا نبي القرن العشرين" وأمام هذا الانحراف والتساهل ومحاولات

التمييع لهذا المفهوم المهم، لا بد لنا من توضيح هذه الظاهرة الانحرافية والتأكيد على المعنى الحقيقي للوحي سدًا لأية ذريعة قد يتذرع بها هؤلاء لإطلاق مثل تلك العبارات الشيطانية المجترئة على الله تعالى والمحرفة للوحي.

وليعلم القارئ أنَّ هذه المحاولات جرت قديماً وتجري حديثاً، لما لمفهوم النبوَّة من صلة وثيقة بالفطرة الإنسانيّة. وذلك هو الفرق بين النبوة والوحي والفلسفة؛ فمن شأن النبوة أن تطاع بإذن الله، ومن شأن الوحي أن يُعَظَّمَ ويُطَاعَ عند من يؤمن به، وأما من ينْفُونه عن بعض الأنبياء، فإنَّما يستبعدون اختصاصهم به من دون الآخرين، وقليل هم أولئك الذين ينفونه ويستبعدونه تماماً؛ ولذلك عقدنا هذه الفقرة لتنبه إلى هذه الظاهرة الانحرافية.

ولقد ظهرت حركة نفي النبوة تزعمها في عصر النبي ﷺ أبو جهل، وأعرب عن دوافعه لنفيها -بوضوح- حين قال: "لقد تنافسنا نحن وبنو هاشم فكان...، ولكن محمدًا ابن كبشة جاء ليقول: إني أتلقى الوحي من السماء فأنى هذا"! وحركة مقاربة الوحي بما ليس بوحي تزعمها في عصره ﷺ الوليد بن المغيرة الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾ (المدثر: ١٨-١٩). أما بعد عصر الترجمة والتدوين فقد برزت مجموعات زندقة وإلحاد وانحرافات، كما برزت اتجاهات فلسفية تعددت وتنوعت وقدمت نفسها بأشكال مختلفة، فهناك من ناقش حقيقة الموجودات من الإنسان والحيوان والشجر والجماد، وزعم أن هذه كلها ليست إلا أعراضًا لا حقيقة لها، ووجودها كلها صوري وتخيل، والقائلون بالأعراض لا يرون فرقًا بين معجزات الأنبياء وأعمال السحرة والكهانة.

لقد آمن سلف هذه الأمة بالوحي والنبوة القائمة عليه باعتباره جزءا من الإيمان بالغيب الذي تلقوه بالقبول بعد التحدي والإعجاز، وبثبوت العجز الإنساني عن الإتيان بمثل القرآن المجيد أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة واحدة، ولم يشعروا آنذاك - أنهم بحاجة إلى تفسير الوحي أو إعادة تقديمه بشكل يتقبله العقل الفلسفي، وربما العقل التجريبي في أيامنا هذه.

٢- الوحي القرآني وغير القرآني

بَيَّنَ الله ﷻ في القرآن الكريم أنَّ كلامه مع البشر إمَّا أن يكون وَحْيًا أو من وراء حجاب أو بإرسال ملكًا رسولاً، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى: ٥١)، بيَّن ﷻ أنَّ هذا الرسول هو الروح الأمين، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)، وبيَّن الله ﷻ أنَّ الروح الأمين، الذي نزل بالقرآن على قلب رسول الله محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (البقرة: ٩٧).

ومن المعلوم أنَّ النبيّ ﷺ كان يُهَيَّؤُ نفسيًّا ويُعَدُّ عقليًّا لِتَلَقِّي الوحي بطرق يعلمها الله تبارك وتعالى، ولذلك قد نجد إشارات في بعض الآيات كأنَّها تذكر رسول الله ﷺ بشيء؛ إمَّا أن يكون سؤالاً دار في نفسه أو شيئًا أُلقي في رُوعِهِ أو تَطَلُّعًا منه ﷺ إلى قَوْلٍ فَصْلٍ من القرآن الكريم في أمر يتوقف على ذلك، وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ (الفتح: ٢٧). وقول الله ﷻ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ (الأنفال: ٤٣). فالذي يفهم من الآيات أنَّ الله ﷻ أرى رسوله محمدًا رؤيًا منامِيَّة، ثم نزلت بعدها هذه الآيات تخبر عن موضوع هذه الرؤيا والعبرة منها، دون تفصيل كامل لها، وقد يحكي رسول الله ﷺ تفصيلات هذه الرؤيا لصحابته وقد تنتشر بينهم ثم تتناقلها الأجيال بعد ذلك كمرويات.

وفي موضع آخر أوحى الله ﷻ إلى رسوله بعدم السماح للمنافقين بالخروج معه حين أصرُّوا على الخروج طلبًا للغنائم؛ يقول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (الفتح: ١٥)، فالذي يفهم من السياق أنَّه قد حدث بين الله ﷻ ورسوله اتصال، كما حدثت حوارات بين رسول الله والمنافقين يعلم الله ﷻ مساحتها الزمنيَّة، ثم أنزل الله ﷻ بعدها وحيًا قرآنيًا بخلاصة ومحصلة ما شاءت حكمته أن تتضمنه رسالته من هذه الأحداث.

وفي موضع آخر يبيِّن القرآن الكريم أنَّ المسلمين في عصر الرسالة كانوا يستقبلون قبلة أخرى أخبرنا الله ﷻ عن الحكمة من تغييرها. يقول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة: ١٤٢-١٤٣).

ولا شك أنَّه قد حدثت مواقف مثيرة خلال هذه الفترة وحوارات ومجادلات بسبب تحويل هذه القبلة، فنزل الوحي القرآنيّ بما يجب على الناس معرفته في هذه المسألة.

وبذلك تكون هذه المسألة قد انتهت في فترة التنزيل واكتمال الدين؛ أي في عصر الرسالة، واستقبل المسلمون المسجد الحرام، وما يزالون يستقبلونه وإلى يوم الدين، والله ﷻ لم يطلب منهم اتباع غير الوحي القرآنيّ الذي جاء بخلاصة لهذه المسألة، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (البقرة: ١٤٤).

وفي موضوع آخر يُبَيِّنُ القرآن الكريم أنَّ إحدى زوجات رسول الله قد أفشت حديثًا دار بينها وبين رسول الله، ثم انتشر هذا الحديث بين أهل بيت رسول الله،

ولا شك أنَّه أخذ مساحة زمنيَّة يتداول فيها، فأخبر الله ﷻ رسوله أولاً بوحي غير قرآنيّ بما حدث من زوجاته، وذلك قبل نزول الوحي القرآنيّ، ثم نزل بعد ذلك الوحي القرآنيّ بما شاء الله ﷻ أن يشمله كتابه الحكيم من أخبار عن هذه الواقعة، تدبر قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ (التحريم: ٣).

إنَّ رسول الله مُبَلِّغٌ عن الله ﷻ رِسَالَتَهُ، فلا يحل له أن يُحَرِّمَ أو يُحِلَّ شيئًا إلا ما أمره الله ﷻ به، وما نزل من وحي قرآنيّ هو ما شاء الله ﷻ أن يشمله كتابه من مجموع تفاصيل ومواقف وأحداث عصر التنزيل، لقد نقل الله ﷻ إلينا مواقف وأحداث فترة التنزيل واكتمال الدين وفق مشيئته وحكمته، وأنزل ما يجب على الناس معرفته منها في نص قرآنيّ مرتل مشمول بوعد الحفظ والجمع والبيان ومعجزة البقاء إلى يوم الدين، بعيدًا عن كل تحريف واختلاف في الرواية مما يحدث في كل ما لم يشمله الوعد الإلهيّ من تاريخ وسير الأمم السابقة التي عبثت بها البشريَّة أيما عَبَثٍ، وكذبت فيه أيما كذب.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (النجم: ١-٥)، متى اتُّهِمَ رَسُولُ الله بالغُوَايَةِ، وهو صاحبهم الذي عرفوه جيدًا؟ لم يُتَّهَمْ إلا عندما بدأ ينطق بالقرآن، وأعلن أنَّه رسول الله إلى الناس جميعًا، لقد دافع الله ﷻ عن رسوله ونفى عنه هذه الغواية، وبيَّن أنَّ ما نطق به من قرآن إن هو إلا وحي من الله ﷻ إليه؛ إنَّ رسول الله ﷺ الذي كانوا يعلمون حديثه وأسلوبه جيدًا عندما نطق بالقرآن اتهموه بالضلال ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ وهو لم ينطق به عن هواه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ وإنَّما نطق عن وحي أوحاه الله ﷻ إليه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

إنَّ الذين فسروا قول الله ﷻ: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى" على أساس عموم ما خرج على لسان رسول الله من كلام بصفة مطلقة، ابتعدوا

عن فهم الآية حسب سياقها الذي وردت فيه، ذلك لأنَّ الله ﷻ لم يخاطب المؤمنين بهذه الآيات كي يستدل بها هؤلاء على وجوب اتباع أقوال رسول الله التي كان تحدث بها؛ وإنَّما خاطب بها المكذبين به؛ ولا يعنى هذا أنَّه لا دليل على حُجِّيَّةِ السنَّة، بل هناك أدلة قويه منها قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(النساء: ٨٠).

لقد كانت تصرفات رسول الله في حياته اليوميَّة، فيما عدا ما يخص الوحي القرآنيّ، تخضع للقانون البشريّ ولكن في أعلى مراتب الكمال فيه، ويشير القرآن إلى ذلك في كثير من آياته التي كانت موجهة للنبي ﷺ باعتباره بشرًا نبيًّا وليس بشرًا رسولاً.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾ (آل عمران: ١٦١)، ويقول الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩)، ويقول الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ (التوبة: ١١٣)، ويقول الله ﷻ أيضًا: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ (التوبة: ١١٧).

إنَّ التفاعل الاجتماعيّ بين رسول الله وقومه فيما سبق من مواقف، قد ينتج عنه تصرف بشريّ من رسول الله ﷺ فيأتي القرآن ليشير إلى هذه الطبيعة البشريَّة ويصحح مسارها، ويثبت ذلك في رسالة الله الخالدة للعالمين، وقد عرضت سورة الأحزاب لبعض صور هذا التفاعل الاجتماعيّ بين رسول الله وقومه وذلك في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى

ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ (الأحزاب: ١-٥)، ويقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩)، ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦-٤٠)، ويقول الله ﷻ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب: ٥٢-٥٣).

إنَّ موضع اتهام المشركين لرسول الله والذي أشارت إليه سورة النجم، لم يكن من أجل خطابه البشريّ الموجه لمن حوله وإنَّما كان من أجل ما اختصه

الله ﷻ به من وحي قرآنيّ، لقد جاءت سورة التكوير تدافع عن جبريل عليه السلام؛ إذ هو الذي نزل على رسول الله هذا الوحي القرآنيّ.

وقد حدد القرآن طبيعة هذا الوحي الذي أمر الله رسوله أن يدونه ويبلغه للناس وهل هو الوحي القرآنيّ فقط أو معه أنواع الوحي الأخرى.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩)، فهذه شهادة من الله ﷻ ومن رسوله بأنَّ الوحي القرآنيّ هو عين الرسالة الذي أمر الله ﷻ رسوله أن يبلغها للناس، ويقول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف: ٣).

فالمصدر المعرفيّ الحق هو الوحي القرآنيّ، ويقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ (فاطر: ٣١-٣٢)، فهذا تحديد للكتاب الإلهيّ الذي يرثه المسلمون جيلاً بعد جيل، والذي سيكون موضع سؤالهم في الآخرة، ويقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ (الشورى: ٧)، فهذا تحديد لطبيعة رسالة رسول الله ودوره فيها، ويقول الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ (الرعد: ٣٠-٣١)، ويقول الله ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (هود: ١٢)، فهذا تحديد لطبيعة الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، وأنَّه محدد كَمًّا وَكَيْفًا، بحيث يستطيع رسول الله أن يعرف بَعْضه من كُلِّه، بَعْضِ ما يوحى، وهذا لم يتوفر فيما ورثته الأمَّة من كتب إلا في كتاب الله ﷻ، الذي دُوِّنَ ورُوجِعَ وصُحِّحَ في حياة رسول الله وتحت إشرافه.

ويقول الله ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥-٨٨)، ففي هذه الآية تحديد لمصدر العلم الذي يَسْتَقِي منه المُسْلِمُ مَعَارِفَهُ الدِّينِيَّةَ وأحكامَ شريعته والذي شاءت إرادة الله ألا يَذْهَبَنَّ به، فهو باق مَحْفُوظٌ بحفظ الله ﷻ له، إنَّه آية رسول الله الدالّة على صدقه والتي تحدى الله بها أهل اللسان العربيّ أن يأتوا بمثلها فعجزوا، ألا يعني هذا التحدي بـ"القرآن وحده" أنَّ النص الموحى به إلى رسول الله والمأمور بتبليغه للناس هو فقط النص القرآنيّ كتاب الله ورسالته الخاتمة؟

ويبيِّن الله ﷻ في كثير من الآيات أنَّ كل ما هو غيب عنَّا من أخبار ومرويَّات وأحداث لا قِبَلَ لنا بمعرفة حَقِيقَتِهَا إلا من خلال مصدر معرفيّ إلهيّ قد ثبتت صحة نسبته إلى الله ﷻ يقينًا، يقول الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ويقول الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٢).

ويُحَذِّرُ اللَّهُ ﷻ من افتراء الكذب عليه وادعاء مَصَادِرَ تَشْرِيعِيَّةٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ

عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٣).

ويُحَذِّرُ اللَّهُ من اتِّباعِ غير الوحي المُنَزَّلِ، يقول الله ﷻ: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٤-١٠٦).

إنَّ هذا الوحي القرآنيّ هو الشَّريعَةُ التي أَمَرَ الله ﷻ رَسُولَهُ، وأمر المسلمين باتباعها، ولا اجتهاد في هذه الشريعة إلا على أساس وبدليل قرآنيّ، ولا اجتهاد دون تَحَلِّي المُجْتَهِد بصفة الرَّبَّانِيَّةِ، هذه الصفة التي جاء جميع الأنبياء والرسل يأمرون الناس بالتَّخَلُّقِ بها وهي التقوى التي بينها قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٩).

وفي ذلك تأكيد على أنَّ الكِتَابَ الحَكِيمَ قد احْتَوَى كُلَّ ما أراد الله ﷻ أن يُبَلِّغَهُ للعالمين حتى قيام الساعة، ولقد أكد الله ﷻ ذلك ببيان أنَّ مُهِمَّةَ رَسُولِهِ بوصفه مُنْذِراً لا تخرج عن الإنذار بالوحي القرآنيّ المنزل.

يقول الله ﷻ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنعام: ٥٠-٥١)، ويقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤).

والقرآن الكريم هو آية رسول الله الدالة على صدقه، يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ

فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (يونس: ١٥-١٧).

أليس في ذلك دَلالَةٌ قَطْعِيَّةٌ على أنَّ رسول الله نفسه غير مأمور بتبليغ شيء، وتلاوته على الناس إلا مصدر تشريعيّ واحد هو الوحي القرآنيّ، هو محتوى رسالته الخاتمة الخالدة، يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحقاف: ٧-١٠).

لقد حَذَّرَ اللَّهُ ﷻ المسلمين، بل والنَّاسَ أجمعين من أن يتخذوا نُصُوصًا تَشْرِيعِيَّةً غَيْرَ نصوص الشريعة القرآنيَّة، نُصُوصَ الكِتَابِ الإِلَهِيِّ التي دُوِّنَتْ في عصر التنزيل وبإشراف من أُنْزِلَتْ عليه رَسُولِ الله مُحَمَّدٍ ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (النحل: ١١٦)، يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس: ٥٩)، ويقول الله ﷻ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الزخرف: ٤٣-٤٤).

تحديدًا لما يجب على المسلم أن يستمسك به، إنَّه النص الإلهيّ الذي أمر الله ﷻ الناس جميعًا باتباعه، إنَّه الوحي القرآنيّ لقول الله ﷻ بعدها ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾.

ومما سبق نخلص إلى أنَّه -عليه الصلاة والسلام- خَوَّل مهمة البيان، وهذا البَيَانُ النَّبَوِيُّ والتطبيق الرسوليّ الذي أطلق عليه -فيما بعد- "السنّة" يصدِّق القرآن عليه ويهيمن، شَأْنُهُ في ذلك شَأْنُ تراث النبيين والمرسلين كافة، ولذلك

كان القرآن المجيد يستدرك على رسول الله ﷺ ويسدد تطبيقاته؛ كما في نحو قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨)، وقال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (التوبة: ٤٣)، ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (التوبة: ٨٠)، وقوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (التوبة: ٨٤)، ونحو ذلك مما يؤيد ما ذكرنا من تصديق القرآن المجيد على ما يصدر عن رسول الله وهيمنته عليه، وهذا مَظْهَرٌ من مظاهر حفظ الله لِنَبِيِّهِ، وتسديده له، وعصمته له يُعَزِّزُ من الإيمان بالبيان النبويّ، ويزيل عنه سَائِرَ الشبهات، ولذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نَازِلَةٌ إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها،"[1] ثم استشهد بالآيات الكريمة: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (إبراهيم: ١)، والآيتان[2] ٤٤ و[3] ٨٩ من سورة النحل، و الآية (٥٢)[4] من سورة الشورى.

ويبنى على ذلك أنَّ هذه السُّنَنَ التي نحن مطالبون بالأخذ بها، والتي تعدّ وحيًا، هي ذاتها السنن التي لها أصول تشريعيَّة في القرآن الكريم وما ليس له أصل في الكتاب يمكن تجنيبه على أساس الإفادة منه في مجالات أخرى كالحكمة أو توجيه قابل للتطبيق، أو اعتبارات أخرى لكن ليس له الصفة التشريعيَّة الموحاة.

---

(١) الشافعي، **الرسالة**، مرجع سابق، ص٢٠.

(٢) قوله تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤).

(٣) قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل: ٨٩).

(٤) قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الشورى: ٥٢).

ثانياً: السنَّة ونظريَّة البيان

إنَّ النظريَّة التي يمكن أن يُؤَسَّسَ مَفْهُومُ السنَّة عليها، ويُقَامُ بِنَاؤُهُ على أساس منها، وتحدد بدقة طبيعة العلاقة بين الكتاب والسنَّة هي النظريَّة التي وضع القرآن الكريم السنَّة النبويَّة فيها، وفي دائرتها ألا وهي نظريَّة البيان بمعناها القرآنيّ، وليس بالمعنى الاصطلاحيّ الذي حمله بعض الأصوليّين والكلاميّين مَعَانِيَ مَزِيدَةً على مفهوم البيان كما هو في القرآن المجيد.

فالسنَّة بَيَانٌ تَأْوِيلِيٌّ وتَفْعِيلِيٌّ للقرآن المجيد لا تخرج عن محوره، ولا تدور خارج مداره ولا تستقل عنه، بل هي ملازمة له ملازمة تامة تدور معه حيث دار، وهذه "النظريَّة البيانيَّة" التي نريد أن نقيم عليها "مفهوم السنَّة النبويَّة" يشهد القرآن لها بسائر آياته التي أشارت إلى السنَّة، وهي التي تمكننا بوصفنا مُكَلَّفِينَ من تحقيق قصد الشارع في السنَّة النبويَّة.

فسنَّة وسيرة الرسول ﷺ وخاتم النبيّين هي جِمَاعُ سُنَنِ الأنبياء وهَدْيِهِمْ عليهم الصلاة والسلام يقول تبارك وتعالى: ﴿... ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ...﴾ (الأنعام: ٨٢- ٩٢). ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل: ٤٣-٤٤).

ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ (آل عمران: ١٨٣-١٨٤).

ويقول عز من قائل: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٦).

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ (المائدة: ١٩)، ويقول جلّ شأنه: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩ ﴾ (الأحقاف: ٩).

ويقول عز شأنه: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾ (الأنعام: ٨-١٠)، ويقول: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١ ﴾ (الأنبياء: ٤١)، ويقول: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ ﴾ (الأنعام: ٣٤)، ويقول: ﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ (آل عمران: ١٤٣-١٤٤).

وسنن الأنبياء تمثل الجانب العمليّ والتطبيقيّ لما أُوحِيَ إليهم، ليتمكن أَتْبَاعُهُمْ من التَّأَسِّي بهم والاهتداء بهداهم وطاعتهم، قال ﷻ على لسان عيسى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ ﴾ (الزخرف: ٦٣-٦٥)، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (المائدة: ١٩).

والآيات الكريمة التي سنوردها فيما يلي يندرج بعضها تحت "النظريَّة البيانيَّة" فهي توضح المهام النبويَّة المتعلقة بالبيان فهو ﷺ: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(المائدة: ٤٨) يعلِّمهم الكتاب ويبيِّن لهم آياته ويزكيهم به، ويستخرج لهم الحكمة منه، ويجاهد أعداء الله به جهادًا كبيرًا، وَآيَةٌ أُخْرَى تُبَيِّنُ للمسلمين أنَّ هذه المَهَامَّ النَّبَوِيَّةَ لن تُؤْتِيَ ثِمَارَهَا فيهم من العلم والحكمة والتزكية إلا إذا التزموا بها ونفذوها، فالرسل ما أُرْسِلُوا إلا لِيُطَاعُوا بإذن الله، ولن يُحَقِّقُوا أهداف رسالاتهم إلا بالتزام أممهم بطاعتهم قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٤-٦٥)، ولذلك قلنا: إنَّ السنَّة النبويَّة هي المصدر المبيِّن على سبيل الإلزام خلافًا للاجتهاد والقياس وما تفرع عنهما.

قال ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ

ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (النحل: ٨٩-١٠٥).

يقول ﷻ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم: ١)، ويقول ﷻ: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل: ٤٤)، ويقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ (إبراهيم: ٤). ويقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى: ٥٢)، ويقول: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩)، ويقول: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة: ١٥١)، ويقول جل شأنه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤).

١- مفهوم البيان عند الإمام الشافعي

لعل القارئ الكريم قد تبيَّن نهج القرآن في بيان السنَّة النبويَّة المطهرة، وهو نهج يقوم على أنَّ السنَّة تأويل، وتطبيق، وتعليم للكتاب، والحكمة، وتزكية للخلق، وبيان لمنهج اتباع القرآن.

والإمام الشافعي حين صاغ نظريَّة البيان من وجهة نظره، فكما أنَّه قد أدرك من الآيات ما هو واضح، بيَّن أنَّه بيان التطبيق والتأويل والتفعيل في الواقع، ولكنَّه في عرضه التفصيليّ لنظريته في البيان في كتابه الرسالة أَوْحَتْ تَقْسِيمَاتُهُ بأنَّ هناك مُجْمَلاً في القرآن، وَمَعْلُومٌ أنَّ الإجمال من الإبهام وَالقُرْآنُ مُنَزَّهٌ عنه. فالإمام الشافعي وهو في غَمْرَةِ مَعْرَكَتِهِ ضد أهل الرأي ودفاعه عن أهل الحديث جعل البيان يأخذ من المعاني ما ذهب إليه الجمهور القائلون بأن في القرآن مُجْمَلاً ومُتَشَابِهًا وكنايةً واستعارة ومجازًا وحذفًا، ولذلك فهو في حاجة إلى البيان لإزالة الإبهام الذي قد يتأتى من ذلك كله.

وقد نقض الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ قَاعِدَتَهُ الأولى الآتية كما سترى.

قال الإمام الشافعي: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نَازِلَةٌ إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها."[١] ولقد خصص الإمام الشافعي بابًا كاملاً من رسالته الأصوليَّة؛ لبيان كيفيَّة البيان، فشرح البيان ووضحه، وبَيَّنَ مَرَاتِبَهُ، وجعله في مستويات خمسة.[٢]

فالبيان **الأول والثاني**، استغنى فيه ببيان القرآن بالقرآن، وهو بذلك ينسجم مع ما تقدم، **والبيان الثالث** خصصه لبيان كيف بَيَّنَ رَسُولُ الله ﷺ من القرآن ما نزل جملة مثل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ٧٧)، فبيّن رسول الله ﷺ بأمره ﷻ عدد ما فرض ﷻ من الصلوات ومواقيتها.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦-٥٣ بتصرف.

وفي ذلك لم يتعرض الإمام الشافعي إلى الآيات الكريمة التي حملت كثيرًا من صفة صلاة النبي من القراءة، واستقبال القبلة، والسجود، والركوع، والقيام، وكذلك شروطها وهيئاتها المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب من طهارة، واستقبال قبلة، وخشوع وإخبات إلى غير ذلك.

فهم حين يضربون المثل بالصلاة كأنَّهم يريدون أن يَتَأَكَّدُوا أنَّ القرآن أَمَرَ بالصلاة على سبيل الإجمال ولم يُبَيِّنْ شيئًا، مُتَجَاهِلِينَ كُلَّ ما تقدم بما في ذلك قوله تعال ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ ﴾ (الإسراء: ٧٨)، ورسول الله ﷺ قد صلى وفقًا لما أُمِرَ حيث رَاعَى القرآن الكريم حَالَتَهُ وحَالَةَ الناس في سورة المزمل وفي آيات صلاة الخوف وفي السفر.

لقد قام رسول الله ﷺ بتطبيق ما أمر القرآن به في الواقع، وإيجاد الروابط بين الأجزاء المكونة لصفة الصلاة وشروطها وما إلى ذلك، وبذلك لا يشعر المسلم بوجود فاصل بين الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة، فالكتاب ينشئ الحكم، ورسول الله ﷺ يتبع الكتاب وينفذ ما جاء فيه، ويقدم للناس منهج اتباعه، لكنَّ المعارك الدائرة -آنذاك- بين أهل الرأى وأهل الحديث هي التي جعلت الأمور تأخذ هذا الشكل الذي أدى إلى كثير من التصورات الخاطئة.

وأمَّا البيان الرابع: فهو بيانات السنَّة؛ إذ تقوم السنَّة ببيان ما أسند الله ﷻ إلى رسوله ﷺ بيانه، وقد أكد الشافعي في سائر المواضع أنَّ هذا الذي بينه رسول الله ﷺ له أصل في كتاب الله ﷻ؛ إذ إنَّه ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نَازِلَةٌ إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها نصًا أو جملة، وما لم يبدُ فيه نَصٌّ من كتاب الله فإنَّما هو مُنْدَرِجٌ في عُمُومَاتِ الكتاب وكلياته، ثم ختم الإمام الشافعي **بالبيان الخامس** الذي اعتمد فيه على البيانات التي تتم من جهة اللغة والعلامات الحسيَّة ونحوها، لتعرف علاقة اللغة بالبيان، وأفاض رحمه الله في ذلك.

البيان الملزم:

ومع كل ما ذكره الإمام الشافعي من مستويات البيان، فإنَّ مما لا شك فيه أنَّ بيان القرآن الكريم هو أسماها وَأَهَمُّهَا، وينبغي الحِرْصُ عليه وعلى معرفته والاطلاع عليه، وأنَّه حين يوجد فإنَّه أعلى أنواع البيان وأولاها بالالتزام به.

والبيان الثاني، الذي يلي بيان القرآن المجيد في درجته ورتبته، إمَّا لاقتضاء طبيعة التكليف كما في قوله ﷻ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٤٣) وغيرها، فإنَّ بيان رسول الله ﷺ هو البيان الذي يتفرد من بين سائر أنواع البيان التالية له بكونه بيانًا ملزمًا، وتتعلق عمليَّة التأسي برسول الله ﷺ بالإيمان بعصمته ﷺ من الذنوب كبيرها وصغيرها، لأنَّه إذا لم يكن الرسول ﷺ معصومًا فقد يؤول الأمر الإلهيّ بطاعته والتأسي به إلى الأمر بالمتابعة على الذنب والخطأ والمخالفة، وذلك محال صدوره عن الله ﷻ.

ومن ثمّ يمكن أن ننظر في سائر الآيات الموجبة لطاعة رسول الله ﷺ في إطار هذه الوحدة البنائيَّة التي تلزمنا بيان القرآن المجيد لنفسه، وبيان رسول الله ﷺ له، وأنَّ هذين النوعين من البيان: بيان القرآن للقرآن، وبيان السنَّة للقرآن -وهو أغلب ما يكون عمليًا- أو عملاً يقترن بالقول المؤكد على ضرورة الالتزام والمتابعة والتأسي برسول الله ﷺ بذلك: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٢)، ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء: ٥٩)، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٤-٦٥)، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (النور: ٥٦).

أمَّا سائر البيانات الأخرى التي أدرجها الأصوليُّون في دائرة الأدلة المختلف فيها فهي، وإن صح أن تعد بيانًا، فإنَّها من قبيل البيان غَيْرِ المُلزَمِ.

ولقد اضطربت أقوال الأصوليّين في هذا الأمر في غمرة الجدل حول البيان وأيهما يقدم في كونه بيانًا "القول أو الفعل" وأوقعهم هذا الاضطراب في مشكلات كثيرة.

٢- مفهوم البيان عند الأصوليين

ويمكن أن نلاحظ بعض الأمور التي اضطربت فيها الأقوال والمواقف في كتب الأصول المطولة مثل "المحصول" للإمام الرازي ونحوه؛ إذ أدرجت حواراتهم بشكل خاص في دائرة المُجْمَلِ وُالمُبَيَّنِ، وعقد الإمام الرازي القسم الثاني من أقسام المُجْمَلِ والمُبَيَّنِ في عدد من المسائل وهي "مسألة المُبَيَّنِ وأقسامه"، وأقسام البيانات، ودار بينهم جدل كبير خاصَّة في بيان الفعل، وهل يجوز أن يكون الفعل بيانًا أو لا يجوز؟ وأي الأمرين يُقَدَّمُ، القَوْلُ أم الفِعْلُ في مجال البيان؟ كما عقد مسألة لبيان رتبة المُبَيَّنِ من المُبَيِّنِ، وحين نأخذ هذه المسائل بالدراسة والتحليل نجد فيها تطويرًا كبيرًا وإضافات كثيرة على نظريَّة البيان لدى الإمام الشافعي ﷺ، ولكن بالرغم من ذلك فإنَّ هناك ثَغَرَاتٍ لا تخفى على الباحث المدقق في هذا الأمر، جعلت بين المُبَيَّنِ والمُبَيِّنِ أي الكتاب والسنَّة فَجْوَةً ما كان لها أن تبرز أو تظهر بذلك الشكل، لولا هَيْمَنَةُ نُمُوذَجِ خِطَابِ التكليف المعرفي على العقل الأصولي فقد ذهب جَمْهَرَتُهُمْ إلى كَوْنِ الفعل بيانًا إذا تجرد عن القول، وهل يدل على حكم في حق المُكَلَّفِينَ أو لا؟ فذهبوا إلى مذاهب أربعة يمكن مراجعتها في "المحصول من علم الأصول".[1]

- وهنا يستطيع الإنسان أن يدرك ما لحق بمفهوم السنَّة من غَبَشٍ بناءً على ذلك، ويستطيع أن ينظر إلى أهميَّة ما ذهب إليه الإمام مالك بن أنس مبكرًا من

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **المحصول في علم أصول الفقه**، دراسة وتحقيق: طه جابر العلواني، القاهرة: دار السلام، ط١، ٢٠١١م، ج٢، ص٦٩٣ -٧٠٠.

اعتبار السنَّة هي الفعل، لأنَّ آثار المنطق في أصول الفقه والنموذج المعرفيّ القائم على خطاب التكليف لم تكن قد برزت في عهده كما برزت فيما بعد، لكن ما يمكن التأكيد عليه هي تلك الأفكار الجَنِينِيَّةُ التي كانت تتردد في حواراتهم حول دَوَرَانِ السنَّة مع الكتاب؛ إذ دار بوصفها بيانًا، ولأنَّ المُبَيِّنَ ينبغي أن لا يتجاوز المُبَيَّن، وأن لا يتقدم عليه، وأنَّ المُبَيِّنَ يَسْتَمِدُّ قُوَّتُهُ من المُبَيَّنِ بحيث لو أُتيحَ لتلك الأفكار أن تَنْمُوَ لتم تحديد العلاقة بشكل دقيق في إطار نظريَّة البيان بين الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة بحيث تستوعب وتتجاوز كثيرًا من تلك المشكلات الفكريَّة التي كان لها آثارها في إرباك النظرة إلى علاقة الأصلين العظيمين كل منهما بالآخر وإلى مناهج التعامل معهما.

٣- البيان اصطلاحًا

نعني بيان القرآن للناس بحيث تزول الاختلافات بينهم في فهمه، أو تنخفض نسبتها بشكل كبير على الأقل، ويصبحون على بيّنة منه وقادرين على تطبيقه: قال ﷻ ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤)، وهذا البيان إليهم يكون بالفعل والقول -والتقرير منه- ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل: ٦٣-٦٤) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة: ١٥)، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (المائدة: ١٩).

وللبيان ضوابط عديدة في التراث الإسلاميّ لا بد من ملاحظتها، منها:

- أن لا يزيد البيان على المُبَيَّنِ زِيَادَةً جَوْهَرِيَّةً تُغَيِّرُ مَعْنَاهُ.
- أن لا يضيف البَيَانُ عَلَى المُبَيَّنِ شيئًا خارجًا عن جِنْسِهِ.

- هناك فُرُوقٌ لا بد من ملاحظتها بين البيان الشفويّ لنص مكتوب، محرر، وغيره.

وإنَّ من معاني البيان الذي هو تبليغ وتبيين معنى الهيمنة بالقرآن المجيد على تراث النبوّات -كلها- والتصديق عليه، ذلك التراث الذي تعرض للتحريف والتلاعب حين خان الأحبار والربانيون الذين اسْتُحْفِظُوا ذلك التُّرَاثَ أَمَانَتَهُمْ فحرفوا ما ائْتُمِنُوا عليه ونَسُوا حظًا مما ذُكِّرُوا به، فكانت مُهِمَّةُ خاتم النبيين مُهِمَّةً مُزْدَوَجَةً تشمل على إخراج الأميين من الأميَّة ليصبحوا أهل كتاب وهو القرآن الكريم، وتبليغ أهل الكتاب كيفيَّة هيمنة القرآن الكريم وتصديقه على الكتاب كله في إعادة قراءة تراث الأنبياء والمرسلين بقراءة قرآنيَّة تنقل حقائق تلك النبوّات، وما جاء به أصحابها إلى البشريَّة كافّة، فكان رسول الله ﷺ بسيرته الكريمة خير نموذج بيانيّ في حفظ ذلك التراث عمليًّا في تنزيل آيات القرآن الكريم -في مجال رسالات وسير الأنبياء- على الواقع الإنسانيَّ إذ قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ ﴾ (النمل: ٦-٧)، ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾ (القصص: ١-٣)، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤ ﴾ (آل عمران: ٤٤) ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ۝٣١ ﴾ (المائدة: ٢٧-٣١)، قال ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ (يوسف: ٢-٣)، وقال ﷻ في سورة

الكهف: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ ... قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ (الكهف: ١-١١٠)، ﴿ طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ ... كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩ ﴾ (طه: ١-٩٩)، وقال ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤ ... فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩ ﴾ (الزخرف: ٤٤-٨٩). وقال ﷻ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ... ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ ﴾ (النحل: ١٢-١٢٣).

ولذلك لم يَكِلِ اللَّهُ ﷻ حِفْظَ كِتَابِهِ الأَخِيرِ إلا لِذَاتِهِ العَلِيَّةِ: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾ (القيامة: ١٧-١٩)، ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ (الحجر: ٩)، فكما لم يُشْرِكِ اللَّهُ ﷻ أحدا في إنْزَالِهِ، لم يُشْرِكْ أحدًا في حِفْظِهِ، وتلاوَتِهِ على نبيه الخاتم، وبيان محكم آياته للناس، قال ﷻ: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ ﴾ (آل عمران: ١٠٨)، ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾ (الجاثية: ٦)، وقال: (﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾ (العنكبوت: ٤٥-٥١).

وبذلك توحَّدت "المرجعيَّة البشريَّة" في هذا القرآن، فهو الكتاب الخاتم نزل على خاتم النبيين في البلد الحرام، وَهَيْمَنَةُ القرآن الكريم وَتَصْدِيقُهُ مُطْلَقَانِ، فهو مهيمن على تراث النبيّين كافّة، وعلى السنَّة المحمديَّة، ومصدق عليه وعليها، والهيمنة على تراث النبوّات تعني الحاكميَّة عليه، والتصديق عليه: يعني إزالة كل ما تعرض أو يتعرض له تُرَاثُ الأنبياء من تَحْرِيفِ الغالين، وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين والمغترين، وإعادة تقديمه صادقا مُنَقًّى من ذلك كله، ولتحقيق هذا كله لا بد من إجراء الخطوة التالية وهي:

ثالثا: عرض السنَّة على القرآن[١]

نريد بذلك تحقيق ما اتجه إليه مُعْظَمُ الأئمة من الشافعي حتى الإمام الشاطبي، ثم من تلاهم وجاء بعدهم من أنَّه ما من سنَّة صحيحة ثابتة إلا ولها في القرآن أصلٌ.

فقد قال الشافعي في الرسالة: " إذا كان الله فرض على نبيه اتباع ما أُنْزِلَ إليه... لم تكن السنَّة لتخالف كتاب الله، ولا تكون السنَّة إلا تبعا لكتاب الله بمثل تنزيله أو مُبَيِّنِهِ معنى ما أراد الله، فهي بكل حال متبعة كتاب الله."[٢] وقال في الفقرة ٦٢٩ من نفس الكتاب: "إنَّ سنَّة رسول الله لا تكون مخالفة لكتاب الله بحال ولكنَّها مُبَيِّنَةٌ عَامَّهُ وَخَاصَّهُ"أه.[٣] ونرى: "أنَّ هذا يعني أنَّ بيان الخاص والعام مُنْدَرِجٌ تحت مفهوم التأويل". وقال الشافعي في موضع آخر: "كل ما سنَّ رسول الله مع كتاب الله من سننه، فهي مُوَافِقَةٌ كِتَابَ الله في النص بمثله وفي الجملة بالتبيين عن الله والتبيين يكون أكثر تفسيرًا من الجملة."[٤]

وقد قسم بَعْضُ العُلَمَاءِ الحَدِيثَ بالنسبة للقرآن ثَلاثَةَ أقسام: حديث موافق لما في القرآن، فالأخذ به فرض، وحديث زائد على ما في القرآن، فهو مضاف إلى ما

(١) العدوي، خميس بن راشد. والمحرمي، زكريا بن خليفة. والوهيبي، خالد بن مبارك. **السنة: الوحي والحكمة؛ قراءة في نصوص المدرسة الإباضية**، بهلاء: مكتبة الغبيراء، ٢٠٠٩م.

(٢) الشافعي، محمد بن ادريس. **الرسالة**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٩م، فقرة ٦١٣.

(٣) المرجع السابق، فقرة ٦٢٩.

(٤) المرجع السابق، فقرة ٥٧٠.

في القرآن والأخذ به فرض، وحديث مخالف لما في القرآن فهو مطروح.[1]

وإلى عرض السنَّة على الكتاب ذهب أبو يوسف، كما يفهم من مناقشته للأوزاعي في حكم الرجل يموت في دار الحرب أو يقتل، هل يضرب له بسهم في الغنيمة؟ فذهب أبو حنيفة إلى أنه لا يضرب له بسهم، وقال الأوزاعي: "أسهم رسول الله ﷺ لرجل من المسلمين قتل بخيبر"، فأجمعت أئمة الهدى على الإسهام لمن مات أو قتل.

وقد رد أبو يوسف على الأوزاعي ذلك، وكان مما قاله: "فلا نعلم رسول الله ﷺ أسهم لأحد من الغنيمة ممن قتل يوم بدر ولا يوم حنين ولا يوم خيبر، وقد قتل بها رهط معروفون، فما نعلم أنَّه أسهم لأحد منهم، وهذا مما لا يختلف فيه". فعليك من الحديث بما تعرف العامَّة، وإياك والشاذ منه، فإنَّه حدثنا ابن أبي كريمة، عن أبي جعفر عن رسول الله ﷺ أنَّه دعا اليهود فسألهم، فحدثوه حتى كذبوا على عيسى عليه السلام، فصعد النبي ﷺ المنبر فخطب الناس فقال: "إنَّ الحديث سيفشو عني، فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عني، وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس عني."[2]

وقد تابع أبا يوسف في ذلك مُعْظَمُ الأحناف، فجعلوا عرض السنَّة على الكتاب من أسس نقد الحديث، فالسرخسي يقسم الانقطاع في الخبر إلى انقطاع في اللفظ – ويعني به المرسل، وانقطاع في المعنى، ثم يبيِّن أنَّ من الانقطاعِ في المعنى أن يكون الحديث مخالفًا لكتاب الله ﷻ، فإنَّه حينئذ لا يكون مقبولاً ولا يكون حجّة، عما كان ما تقرره الآية أو خاصًا، نصًا أو ظاهرًا.

وقد استدل على ما ذهب إليه بالنقل والعقل، أمَّا النقل فقوله ﷺ: "كل شرط ليس في كتاب الله ﷻ فهو باطل، وكتاب الله أحق"، وقد فسر السرخسي هذا الحديث بقوله: "والمراد كل شرط هو مخالف لكتاب الله ﷻ، لا أن يكون المراد

(١) ابن حزم، علي بن أحمد. **الإحكام في أصول الأحكام**، القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٢٠٩.

(٢) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري. **الرد على سير الأوزاعي**، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ص٢٤-٢٥.

ما لا يوجد عينه في كتاب الله ﷻ ،" كما استدل أيضًا بما رواه من قوله ﷺ: "تكثر الأحاديث لكم بعدي، فإذا رُوِيَ لكم عني حَدِيثٌ فاعرضوه على كتاب الله ﷻ، فما وافقه فاقبلوه واعلموا أنَّه منّي، وما خالفه فردوه واعلموا أنّي منه بريء."

أمَّا استدلاله العقليّ فيتركز على الموازنة بين الكتاب والخبر من جهة الثبوت، لأنَّ الكتاب متيقن به، وفي اتصال خبر الواحد برسول الله ﷺ شبهة، فعند تعذر الأخذ بهما لا بد أن يؤخذ بالمتيقن ويترك ما فيه شبهة، والعام والخاص في هذا سواء، لما بَيَّنَّا أنَّ العام موجب للحكم فيما يتناوله قطعًا كالخاص، وكذلك النص والظاهر سواء؛ لأنَّ المتن من الكتاب متيقن به، ومتن الحديث لا ينفك عن شبهة، لاحتمال النقل بالمعنى، ثم قوام المعنى بالمتن، فإنَّما يشتغل بالترجيح من حيث المتن أولاً إلى أن يجيء إلى المعنى، ولا شك أن الكتاب يترجح باعتبار النقل المتواتر في المتن على خبر الواحد، فكانت مخالفة الخبر للكتاب دليلاً ظاهرًا على الزيافة فيه."[1] ثم ذكر السرخسي أنَّ الأحناف بناء على هذا الأصل ردوا أحاديث مس الذكر، وحديث فاطمة بنت قيس، وخبر القضاء بالشاهد واليمين.

ثم يقول السرخسي مؤكدًا أهميَّة عرض الحديث على القرآن والسنَّة المشهورة. مثنيًا على طريقة أئمة الأحناف في هذا الصدد: ففي هذين النوعين من الانتقاد للحديث علم كثير، وصيانة للدين بليغة؛ فإنَّ أصل البدع والأهواء إنَّما ظهر من قبل ترك عرض أخبار الآحاد على الكتاب والسنَّة المشهورة، فإنَّ قومًا جعلوها أصلاً مع الشبهة في اتصالها برسول الله ﷺ، ومع أنَّها لا توجب علم اليقين، ثم تأولوا عليها الكتاب والسنَّة المشهورة، فجعلوا التبع متبوعًا، وجعلوا الأساس ما هو غير متيقن به، فوقعوا في الأهواء والبدع، بمنزلة من أنكر خبر الواحد إلى أن قال: "وإنَّما سواء السبيل ما ذهب إليه علماؤنا رحمهم الله من إنزال كل حجة منزلتها، فإنَّهم جعلوا الكتاب والسنَّة المشهورة أصلاً، ثم خرَّجوا عليهما ما فيه بعض الشبهة، وهو المروي بطريق الآحاد مما لم يشتهر، فما كان منه موافقًا

(١) السرخسي، **أصول السرخسي**، مرجع سابق، ج١، ص٣٦- ٣٦٥.

للمشهور قبلوه، وما لم يجدوا في الكتاب ولا في السنَّة المشهورة له ذكرًا قبلوه أيضًا وأوجبوا العمل به، وما كان مخالفًا لهما ردوه."[1]

وممن ذهب مذهب الأحناف في ذلك مع اختلاف يسير – الإمام مالك، فقد قارب فقهاء العراق في عرضهم أخبار الآحاد على الكتاب، وقد استنبط المالكيَّة من صنيع إمامهم أنَّ مالكًا يقدم ظاهر القرآن على السنَّة إلا إذا عارض السنَّة أمر آخر، من قياس أو عمل أهل المدينة، وَرَدَّ لذلك بَعْضَ السُّنَنِ.[2]

وقد أَيَّدَ الشاطبي مسلك الأحناف في ضرورة عرض المنسوب من المرويَّات على القرآن، وذكر أنَّ السلف الصالح كانوا يفعلونه، ثم قال بعد أن ذكر أمثله ذلك: "وفي الشريعة من هذا كثير جدًا، وفي اعتبار السلف له نقل كثير. ولقد اعتمده مالك بن أنس في مواضع كثيرة لصحته في الاعتبار."

ثم ذكر بعض أمثلة لأخذ مالك بهذا الأصل، ورد بناء على القول به حديث غسل الأناء من الكلب: وحديث خيار المجلس، وحديث من مات وعليه صوم صام عنه وليه.[3]

أمَّا المحدثون وغيرهم ممن ذهب إلى أنَّ الكتاب والسنَّة في مرتبة سواء، أو أنَّ السنَّة قاضية على الكتاب – فإنَّهم لم يأخذوا بمبدأ عرض الحديث على القرآن، بل هاجموه بشدة، ومنعوا أن يكون هناك حديث صحيح مخالف للقرآن، ويعبر ابن حزم عن رأيهم فيقول: لا سبيل إلى وجود خبر صحيح مخالف للقرآن أصلاً، وكل خبر شريعة فهو إمَّا مضاف إلى ما في القرآن ومعطوف عليه ومفسر لجملته وإمَّا مستثنى منه مبيِّن لجملته، ولا سبيل إلى وجه ثالث.[4]

ويبدو أنَّ ابن حزم والجمهور قد ذهبوا إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) مراد به لتبيِّن للناس بالسنَّة ما نزل إليهم من الكتاب،

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٦٧- ٣٦٨.
(٢) أبو زهرة، محمد. **الإمام أحمد بن حنبل**، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٨م، ص٢١٦-٢١٨.
(٣) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٣، ص٧- ١٢.
(٤) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٩.

والصحيح أنَّ المراد ليبيّن للناس الكتاب بالكتاب تلاوة وتعليمًا، كما بيَّنَّا في أكثر من موضع فيما تقدم.

وقد صنف الإمام أحمد بن حنبل كتابًا في طاعة رسول الله ﷺ رد فيه على من احتج بظاهر القرآن في مُعَارَضَةِ السُّنَنِ، وقد ذكر ابن القيم خُطْبَةَ أحمد في هذا الكتاب؛[1] لأنَّ الإمام أحمد ظنّ أنَّ ظاهر القرآن لا بد أن يكون فيه إجمال في حين أنَّ الحديث من وجهة نظره فيه بيان وتحديد، ومن ثمّ فقد قدمه على ظاهر القرآن. وَهَفَوَاتُ الكِبَارِ على أَقْدَارِهِمْ... غفر الله لنا وله.

وكما استدلت الفِئَةُ الأولى بحديث يُفِيدُ وُجُوبَ عَرْضِ السنَّة على القرآن – استدل المحدثون أيضًا بحديث يُفِيدُ عدم وجوب هذا العرض، فقد روى ابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب الكندي، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "يوشك الرجل متكئًا على أريكته، يُحَدَّثُ بحديث من حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ﷻ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله".

وقد ذكر الخطابيّ أنَّ في هذا الحديث تحذيرًا من مخالفة السنن التي ليس لها في القرآن ذكر، على ما ذهب إليه الخوارج والروافض، فإنّهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب، فتحيَّروا وضلوا. قال: "وفي الحديث دليل على أنَّه لا حاجة بالحديث أن يُعْرَضَ على الكتاب، وأنَّه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حُجَّةً بنفسه."[2]

---

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. **أعلام الموقعين**، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م، ج٢، ص٣٧٩-٣٨١.

(٢) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي. **معالم السنن شرح سنن أبي داود**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م، ج٤، ص٢٧٦ في تعليقه على حديث رقم (١٦٣٧). انظر أيضا:

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي. **سنن أبي داود**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م، ط١، أول كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ج٧، ص١٥، حديث رقم: ٤٦٠٥.
- الترمذي، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، مرجع سابق، كتاب العلم، باب ما نهي عنه =

وفى هذا خلط شديد بين ما ثبت وما لم يثبت، فإنَّ السنَّة الثابتة الصحيحة في واقع الحال كما نقلنا عن الشافعي وغيره في أكثر من موضع يستحيل أن تخالف القرآن.

وروى ابن ماجة أيضًا عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "لا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِه، يأتيه الأمر مما أَمَرْتُ به أو نَهَيْتُ عنه فيقول: لا أدري، ما وَجَدْنَا في كتاب الله اتَّبَعْنَاهُ."(١)

أمَّا الحديث الذي رواه من رأى وجوب عرض الحديث على القرآن، فقد ضعفه المحدثون، بل حكموا عليه بالوضع، فنقل الخطابي عن يحيى بن معين أنَّه قال: "هذا حديث وضعه الزنادقة،"(٢) وقال فيه عبد الرحمن بن مهدي: "الزنادقة والخوارج وضعوا هذا الحديث، وعارض هذا الحديث قوم منهم فقالوا نحن نَعْرِضُهُ على كتاب الله فلما عَرَضْنَاهُ وجدناه مُخَالِفًا لكتاب الله، لأنَّا لم نجد في الكتاب أَلا نَقْبَلَ من الحديث إلا ما وافق القرآن، بل وجدنا كتاب الله يُطْلِقُ التأسي بالرسول والأمر بطاعته، ويحذر من المخالفة عن أمره جملة على كل حال."(٣)

= أن يقال عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ج٥، ص٣٧، حديث رقم: ٢٦٦٣، وقال: حسن صحيح.
- ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مرجع سابق، ج٣، ص٨٢ وصححه.

(١) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٨م، كتاب أبواب السنة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١٣)، انظر كذلك:
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣م، كتاب السنة، باب في لزوم السنة من حديث أبي رافع ﷺ، ج٧، ص١٥، حديث رقم: ٤٦٠٥.
- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، ج٥، ص٣٧، حديث رقم: ٢٦٦٣، وقال: حديث حسن صحيح.
- ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مرجع سابق، ج٣، ص٨٢ وصححه.

(٢) الخطابي، **معالم السنن شرح سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٦.

(٣) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٤، ص٩. وانظر بعض طرق هذا الحديث:
- ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٩، ص٢١٠، وج٦، ص٣١٠، وبين وجوه ضعفها. =

وقد رأى المحدثون أنَّ الاتجاه إلى عرض السنَّة على القرآن اتجاه خطير، يؤدي إلى القول بترك السنَّة أصلاً، والاقتصار على الكتاب. "وهذا رأي قوم لا خَلاقَ لهم من الدين خارجين على إجماع المسلمين"؛ وقد أشار الخطابي آنفًا إلى أنَّ هذا هو مذهب الخوارج والروافض، ويقرر ابن القيم رأي المحدثين في مناصرته لرأي الإمام أحمد. فيقول: "لو كان كل ما أوجبته السنة ولم يوجبه القرآن نسخا له لبطلت أكثر سنن رسول الله ﷺ ودفع في صدورها وأعجازها وقال القائل هذه زيادة على ما في كتاب الله فلا تقبل ولا يعمل بها وهذا بعينه هو الذي أخبر به رسول الله ﷺ أنَّه سيقع وحذر منه،"[1] وكأنه يريد أن يقول" "لو ساغ رَدُّ سُنَنِ رسول الله ﷺ لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب – لرُدَّتْ بذلك أَكْثَرُ السنن وبطلت بالكليَّة. فما من أحد يحتج عليه بسنَّة صحيحة تخالف مذهبه ونِحْلَتَهُ إلا يمكنه أن يتشبث بعموم آية أو إطلاقها" و"هذه السنَّة مخالفة لهذا العموم أو هذا الإطلاق فلا تقبل.

ولعل الخوارج، والروافض، وَغَيْرَهُمَا من الفِرَقِ التي عاصرت هذا الخلاف – التي أدت إلى احْتِدَامِه، وحالت دون لِقَائِهِمَا حول معنًى قَرِيبٍ. بالإضافة إلى أنَّ فقهاء أهل الرأي قد أدخلوا في مفهوم عرض الحديث على الكتاب ما عُرِفَ بمسألة الزيادة على النص؛ إذ ردوا أَحَادِيثَ لِمُجَرَّدِ أنَّها أَتَتْ بأحكام زائدة على القرآن، وإلا فإنَّ فكرة عرض الحديث على الكتاب فكرة سليمة لا غُبَارَ عليها، والقول بها ليس بدعة ولا حدثًا في الدين. فقد كانت موجودة في عصر الصحابة، استعملها مَنْ أَكْثَرَ الرِّوَايَةَ مِنْهُم وَمَنْ لَمْ يُكْثِرْ. ولكنَّهم في الواقع لم يستعملوها على أنَّها مبدأ مُلتَزَمٌ به، بل على أنَّها حُكْمٌ عند التنازع، وأصل يرجع إليه عند الاختلاف أو الشك في صحة بعض الأحاديث.

= – الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١، ص١٥٥، ص١٦٩-١٧٢.

(١) ابن القيم، **أعلام الموقعين**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨١، تحت عنوان: "أقوال العلماء في العمل بالنص". وانظر أيضا في نفس الكتاب "السنة لا تعارض الكتاب".

ولذا رأى السندي أنَّ العرض المذموم هو الذي يقصد منه رد الحديث بمجرد أنَّه ذكر فيه ما ليس في الكتاب، وإلا فَالعَرْضُ لِقَصْدِ الفهم والجمع والتثبت لازم.[1]

يقول الشيخ أبو زهرة: "وَمِنْ هذا ترى أنَّ فقهاء الرأي الذين لا يقبلون الأحاديث إلا بعد عرضها على المُحْكَم من كتاب الله ﷻ الذي لا يحتاج إلى بيان – قد اعتمدوا في منهجهم على الصحابة؛ أبي بكر وعمر وعائشة وغيرهم ﷺ وحاكوهم في منهاجهم، ولم يباعدوا عن سمتهم، فما كانوا مبتدعين، ولكن كانوا مُتَّبِعِينَ".[2]

ومما يدل على أنَّ الفكرة في حد ذاتها فكرة سليمة، وأنَّ الاختلاف فيها نَشَأَ بسبب الظروف المحيطة بها والاختلاف في مفهومها – أن المحدثين أنفسهم لم يَغْفُلُوهَا بل رَاعُوهَا، وجعلوها من أُسُسِ نَقْدِ الحديث، جعلوا مناقضة الحديث لصريح القرآن من علامات الوضع في المتن.[3]

ولذلك علق الشاطبي على حديث عرض السنَّة على القرآن، وهو الذي رفضه أكثر المحدثين، بأنَّ معناه صحيح، صَحَّ سَنَدُهُ أولاً، واحتج لذلك ببعض ما رواه الطحاوي في هذا المعنى، ثم قال: والحاصل من الجميع صحة اعتبار الحديث بموافقة القرآن وعدم مخالفته، وهو المطلوب على رفض صحة هذه المنقولات، وأمَّا إن لم تصح فلا علينا؛ إذ المعنى المقصود صحيح.[4]

---

(١) السندي، محمد بن عبد الهادي. **حاشية السندي على سنن ابن ماجة**، ج١، ص١٥، نسخة المكتبة الشاملة.

(٢) أبو زهرة، **الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٣) الخطيب، محمد عجاج. **السنة قبل التدوين**، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٦٣م، ص١٤٤. انظر أيضا:

– الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم. **نهاية السول شرح منهاج الوصول**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص١٢٠-١٢٢.

(٤) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٤، ص١٠-١٢.

رابعاً: إشكاليَّات منهجية في التعاطي مع السنَّة

من أهم الأمور التي شغلت العقل المسلم، وما تزال تشغله قضيَّة صياغة العلاقة بالدقة اللازمة بين الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة المطهرة. فمع أنَّه من البديهي أنَّ القرآن الكريم هو المصدر المنشئ للأحكام، وأنَّ السنَّة النبويَّة هي بيان له على سبيل الإلزام، بَيْدَ أنَّ طبيعة العلاقة بينهما بقيت -على وضوحها- مَثَارَ كَثِيرٍ من التساؤلات، وذلك لأنَّ بعض أهل العلم يقولون: "إنَّ السنَّة يمكن أن تكون مصدرًا مُسْتَقِلاً عن القرآن في إنشاء الأحكام أو في الكشف عنها"، وقد ترتب على هذا التصور أن قرر الأصوليُّون والفقهاء أنَّ السنَّة هي المصدر الثاني للتشريع، كما قرروا أنَّ المصدر الأول هو القرآن الكريم. وانطلقوا في بناء هذا التراث من قضيَّة "القطع والظن"، فالقرآن مقطوع به فهو أول، والسنَّة في عامتها ظنيَّة فلتكن مصدرًا ثانيًا.

وفي الوقت نفسه نجد كثيرًا من العلماء في مقابل ذلك دَمَجُوا بين الكتاب والسنَّة وعدّوهما وحيًا لا يختلف إلا في مجال الإعجاز والتعبُّد، وبعضهم شاع لديه استعمال التثنية بأن يقال: "الوحيين"، وأنَّ التمييز يَكْمُنُ في أنَّ القرآن الحكيم وَحْيٌ باللفظ، والسنَّة وَحْيٌ بالمعنى، والقرآن مُتَحَدًّى به مُعْجِزٌ وما السنَّة بمعجزة، والقرآن يتلى بلفظه كما أُنْزِلَ، في حين يجوز أن تروى السنَّة بالمعنى، وقد ترتب على هذه التصورات مَذَاهِبُ خَطِيرَةٌ، منها القول بجواز نسخ السنَّة للقرآن الكريم والعكس، وكذلك قبول فكرة إمكان التعارض بينهما ووجوب التوفيق سواء بطريق النسخ أو بطريق التأويل أو بأيّة طريق أخرى، مما أدى إلى توهم بعضهم أو ظن بعضهم أنَّ الفوارق بينهما هي فوارق شكليَّة فقط تتعلق بالألفاظ وبالمرتبة، وبذلك أصبحت معاني القرآن الكريم يمكن أن ترتبط بالإطار التاريخي الذي تكونت فيه السنَّة النبويَّة المطهرة ارتباطًا وثيقًا يجعل بيئة التنزيل هي نفسها بيئة التفسير والتأويل الذي لا يجوز تجاوزه، بحيث لا ينبغي أن يبحث عن أي معنى آخر لآيات القرآن الكريم خارج عن تطبيقات عصر

التنزيل وفهم الصدر الأول. وذلك قد يؤدي إلى نفي صفة الإطلاق عن القرآن، ونفي كونه معادلاً موضوعيًا للكون وحركته، بحيث يقوم باستيعاب كل عصر ويتجاوزه حتى يوم الدين؛ وذلك معنى كونه خاتمًا لكتب الله تعالى وحكمة حفظ الله له، وعصمته من أي تغيير أو تحريف. فالقول بذلك قد يؤدي إلى ما يسمى اليوم بـ"التاريخانيَّة"؛ أي تقييد القرآن الكريم ومعانيه بفترة تاريخية محددة هي التي حاول الأصوليُّون رفضها حين عالجوا قضيَّة الخطاب القرآنيّ، وهل هو خطاب شامل لمن يأتي بعد عهد رسول الله ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم-، أم هو خطاب خاص بتلك المرحلة؟ فقرروا أنَّه خطاب شامل للناس كافّة يتناول كل من يخلق حتى يوم الدين.[1]

إنَّ أي نوع من الفهم يمكن أن يؤدي إلى توهم نسبيَّة القرآن الكريم، وأنَّه ليس نصًا مطلقًا يستوعب الزمان والمكان يُعَدُّ فَهْمًا خطيرًا لا بد من التنبه إليه واستبعاده، ولا يغني القول بعموم الخطاب وشموله إذا عدّ القرآن في المآل نصًا نسبيًا يتحدد بالزمان والمكان. فمؤدى ذلك أنَّ النص القرآنيّ لا يمكن له أن يستوعب "الصيرورة التاريخيَّة"، ولا أن يتجاوزها. وفي ذلك كله تجاهل للتحديد الدقيق للعلاقة بين الكتاب والسنَّة، ذلك التحديد الذي جاءت به آيات سورة النحل وغيرها، ومنها

---

(١) بحث علماء أصول الفقه هذه المسألة تحت عنوان "تكليف المعدوم"، وانشغلوا في كثير من الأخذ والرد في ذلك الأمر، وتحولت في كثير من جوانبها إلى مسألة فلسفيَّة كلاميَّة. والخطب فيها أيسر، وآية العهد تنير السبيل، وآيات العموم والشمول في القرآن لها القول المشرق المنير في هذا الأمر. فراجع مذاهبهم وأدلتهم وأخذهم وردهم في هذه المسألة في:

- الرازي، **المحصول في أصول الفقه**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٥-٢٦٠.
- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد. **المستصفى في علوم الأصول**، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ، ص٨٥-٨٦.
- البصري، محمد بن علي بن الطيب. **المعتمد في أصول الفقه**، تحقيق: خليل الميس، ببروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، ج١، ص١٣٩ وما بعدها (باب: في الأمر الوارد بالشيء على شرط زوال المنع). وسائر المظان الأصوليَّة في هذا الباب، وراجع تحريرنا لمواضع النزاع في هذه المسألة ومناقشتنا لمذاهب الأصوليين وما خلصنا إليه في هامش "المحصول" الموضع السابق.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ (النحل: ٦٤)، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ (النحل: ٨٩). إضافة إلى قوله سبحانه في سورة النمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾ (النمل: ٩١-٩٢).

وهذه الآيات تحدد بوضوح أنَّ محور الرسالة ومصدرها المنشئ هو القرآن الكريم. وأنَّ مهمة النبوَّة تبليغه وبيانه، وتقديم نموذج تطبيقيّ لِقِيَمِه وَأَحْكَامِه يُمْكِنُ للبشريَّة أن تَحْتَذِيَهُ في كل أزمانها وأماكنها، وليست البشريَّة مُطَالَبَةً بإعادة إنتاجه، وإذا تصورت ذلك فإنَّها واهمة خاطئة. وما لم تتم عمليَّة تحديد دقيق لعلاقة الكتاب بالسنَّة، وبيان دقيق لطبيعة كل منهما، لتبدو الفوارق الدقيقة بينهما، فإنَّ من الصعب جدًا تجاوز تلك الإشكاليَّة، وسوف يحدث خلط رهيب في إطار "المرجعيَّة".

لقد حفل تراثنا الفقهيّ والأصوليّ والحديثيّ وغيره بأفكار لم تفهم جيدًا وشوشت على طبيعة هذه العلاقة، ومنها تلك المَقُولاتُ التي رَوَّجَهَا بَعْضُ أهل العلم بالقول بأنَّ: "السنَّة قاضية على الكتاب"، وأنَّها "ناسخة له"، وأنَّ "الكتاب يحتاج السنَّة أكثر مما تحتاج السنَّة إلى الكتاب"، وهي أقوال غير دقيقة ولا مسؤولة، إن دلت على شيء فإنَّما تدل على تلك الإصابات الفكريَّة الخطيرة التي نَجَمَتْ عن اضطراب فهم العلاقة بين الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة في تلك الأذهان، واستدرج بعض العلماء إلى الدخول بعمليَّات مفاضلة بينهما، وإذا كان علماء الأمَّة قد رفضوا التسوية المطلقة بينهما، فإنَّهم يرفضون كذلك تلك التَّفْرِقَةَ غَيْرَ الدقيقة التي تَرَتَّبَتْ عليها إِصَابَاتٌ فِكْرِيَّةٌ خَطِيرَةٌ.

كما أنَّ كثيرًا من الدراسات ذات العلاقة بهذا الجانب من معارفنا الإسلاميَّة، وعلوم الكتاب والسنَّة الموروثة انبثقت أو بُنِيَتْ على تلك الفرضيات المشار إليها،

فَكَرَّسَتْ أفكارًا لا تزال تحتاج إلى مراجعة لتصحيح مسار تلك العلوم والمعارف في ضَوْءِ إعادة النظر في العلاقة بين المصدرين؛ المُنْشِئِ وَالمُبَيِّنِ.

كما أنَّ طرائق الاستدلال المرتبطة بالجزئيَّات الفقهيَّة وجدت في السنَّة مصدرًا أيسر في الرجوع إليه من القرآن الكريم، لارتباطها بوقائع وأشخاص وأحداث واقعيَّة يسهل العثور على أشباه ونظائر لها في الأزمنة اللاحقة، فكرست بذلك فكرة الانفصال بين المَصْدَرَيْنِ وقطعت أشواطًا طويلة في بناء كثير من جزئيَّات القضايا الفقهيَّة على ذلك التصور، حتى تحولت إلى مُسَلَّمَةٍ لا تكاد تقبل مراجعة.

وزاد من ذلك تعقيدًا اختلاط محاولات تحديد العلاقة بين الكتاب والسنَّة بمحاولات القدح في "حجيَّة السنَّة" أو التقليل من أهميَّتها، وعدم التمكن من صياغة خطاب العلاقة بين المَصْدَرَيْنِ بشكل يفتح العقول للتداول المعرفيّ الحر في هذا الأمر بشكل هادئ بعيد عن التَّشَنُّجَاتِ والاتهامات بإنكار الحُجِّيَّةِ أو التقليل من أهميَّة السنَّة النبويَّة المطهرة تُبقي على مبدأ العلاقة التكامليَّة بين الكتاب والسنَّة، لتحل محلها تلك العلاقات التي تكرست بناء على ما ذكرنا.

١- إشكالات في التراث الأصولي

إنَّ هناك نوعًا من الغبش لدى بعض المعاصرين في فهم مهام صاحب الرسالة ﷺ وتنوعها والحدود الفاصلة بين مهمة وأخرى. وتمييز ذلك لا شك أمر فيه عدد من الصعوبات، ويحتاج إلى البحوث المتعمقة المستفيضة؛ للكشف عن الفواصل بين صفة وأخرى من صفاته ﷺ. إذا كان الأصوليُّون الكبار -رحمهم الله- قد قاربوا فهم تنوع مهام صاحب الرسالة يتعلق بأفعاله ﷺ وتنوعت، وتعددت أقوالهم في ذلك بناءً على ملاحظة صفاته المختلفة ﷺ من الإمامة والنبوَّة والبشريَّة، ففرقوا بين الفِعْلِ الجِبِلِّيِّ، والتصرف الطبيعيّ الذي يقوم به عليه الصلاة والسلام بفطرته البشريَّة، وطبيعته الإنسانيَّة والفعل الذي يقوم به بوصفه نبيًّا ورسولاً، والفعل الذي يقوم به للتعليم، والفعل الذي يقوم به وبصفته إمامًا وحاكمًا، والفعل الذي يقوم به بمقتضى أيّة صفة أو مهمة أخرى، لكنَّهم لم يَطردُوا ذلك في معالجتهم لأقواله

عليه الصلاة والسلام، وذلك لما تقرر عند الأصوليين من فُرُوقٍ بين الفعل والقول يعرفها أَهْلُ الاخْتِصَاصِ، وبذلك تأثرت قضيَّة الفهم أيضًا لهذا الأمر الذي يحتاج منَّا إلى كثير من الدراسات والضبط والتحقيق. إذ كيف يُدَلِّلُ الأصوليُّون على هذا التمييز الذي أقاموه بين تصرفات النبي ﷺ بوصفه إمامًا، وبوصفه قاضيًا، وبوصفه قائدًا، وبوصفه نبيًا؟ وكيف نضع الخطوط العريضة الفاصلة فيه؟ وَلِمَ لا تُحَدِّدُون لنا السنن بوصف كل تصرف كما حددتم لنا الصحيح والحسن والضعيف ونحوه كأن تُصنَّف أَحَادِيثُ صحيح البخاري إلى أحاديث مَرْوِيَّةٍ عنه ﷺ بوصفه إمامًا وأخرى بوصفه نبيًا، وهكذا.

لم يحدد الأصوليُّون السُّنَنَ التَّشْرِيعِيَّةَ وَغَيْرَ التَّشْرِيعِيَّةِ، ذلك لأنَّهم لما تَعَاطَوْا مع السنَّة أخذوا ما قاله المحدثون ووقفوا عند المباحث التي كان لأئمتهم فيها مواقف فعدلوها في صالح أئمتهم، وفي الباقي قبلوا تعريفاتهم في الصحيح، والحسن، والمشهور، والمُعَلَّلِ، والمُدَلَّسِ وَالمُعَنْعَنِ وغيره ...

وبذلك جعلوا السُّنَنَ عَامَّةً عَائِمَةً دون تحديد وعدّوها جميعًا تشريعًا، حتى السُّنَنُ غَيْرُ التَّشْرِيعِيَّةِ مِثْلُ الطبيعية أو الجِبِلِّيَّةِ عُدّ أنَّ الأصل فيها أنَّها تَشْرِيعٌ، حتى يُدلل على أنَّه ﷺ فعلها بحكم الطبيعة أو العادة. ورغم ذلك عدّوها كذلك مُتَضَمِّنَةً لأحكام. وفوق ذلك فتحوا بوابة التشريع لِمَا أَعْطَوُا السنَّة سُلطَةً مُسْتَقِلَّةً في التشريع وَمُوَازِيَةً للقرآن، فَاعْتُبِرَ كُلُّ حديث يأتي عنه ﷺ شريعة، بمعنى أنَّه إذا لم يدل على شيء إلا على الإباحة فهو مباح. ولذلك وقع عندهم خِلافٌ طَوِيلٌ حَوْلَ الإباحة؛ هل هي حكم شرعيّ أم حكم عقليّ، ولم يخالفهم في ذلك إلا الكعبي على اعتبار الإباحة حكم عقليّ لا شرعيّ، وأصرّ جَمْهَرَتُهُمْ على أنَّ الإباحة حُكْمٌ شرعي وَعُدَّتْ خَامِسَ الأحكام التكليفيَّة: "واجب، وحرام، ومندوب، ومكروه، ومباح". لهذا الغرض، قالوا إنَّ الإباحة حُكْمٌ شرعيّ لا عقليّ، وبذلك حصروا القضيَّة في إثبات صحة الرواية، فإذا أثبتنا الصحة فالأمر مفروغ منه، لأنَّه على كل أحواله تشريع.

٢- سيطرة المنهج الفقهيّ على التعاطي مع السنَّة النبويَّة

إنَّ التركيز على الجانب الفقهيّ، واعتبار أنَّ الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة مصدران للأحكام فقط، أدى إلى ضُمُورِ إدراك العقل المُسْلِم بأنَّهما -معًا- مصدران لبناء الإنسان وتحقيق العُمْرَانِ وإنشاء الحضارة، ومن ثمّ فإنَّ الحاجة مَاسَّةٌ إلى تسليط الأضواء على الجوانب الأخرى التي لم تَحْظَ من العقل المسلم بما حَظِيَتْ به آيات، وأحاديث الأحكام من اهتمام نتيجة بروز الاتجاه الفقهيّ أو هيمنته وسيطرته، واستغراق العلماء فيه.

كما أنَّ طرائق الاستدلال المرتبطة بالجزئيَّات الفقهيَّة وجدت في السنَّة مصدرًا أيسر في الرجوع إليه من القرآن الكريم، لارتباطها بوقائع وأشخاص، وأحداث واقعيَّة يسهل العثور على أشباه ونظائر لها في الأزمنة اللاحقة، فكرست بذلك فكرة الانفصال بين المصدرين وقطعت أشواطًا طويلة في بناء كثير من جزئيَّات القضايا الفقهيَّة على ذلك التصور، حتى تحولت إلى مُسَلَّمَةٍ لا تكاد تقبل مراجعة.

وتبرز في هذا الإطار أيضًا قضيَّة "فهم السنَّة النبويَّة المطهرة"، فقراءة كل من الكتاب الكريم والسنَّة النبويَّة المطهرة من المنظور الفقهيّ التجزيئيّ -وحده- قد أدت إلى تجاهل "الوحدة البنائيَّة للقرآن الكريم" و"الوحدة البنائيَّة للسنَّة النبويَّة المطهرة"، ثم وحدتهما بوصفهما مصدرين؛ أحدهما مُبَيَّنٌ وَالآخَرُ مُبَيِّنٌ، مما كَرَّسَ تصور التَّرَاتُبِيَّةِ بينهما؛ والتي وضعها الفقهاء بناء على الحديث الموضوع المروي عن معاذ بن جبل ﷺ،(١) إنَّما هي تَرَاتُبِيَّةٌ قامت على جملة من الفرضيَّات الخاطئة.

(١) "أنَّ رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنَّة رسول الله، قال: فإن لم تجد في سنَّة رسول الله ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله. جاء في التلخيص الحبير لابن حجر: " أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن عدي والطبراني والبيهقي من حديث الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ. قال الترمذي: "لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده =

الفرضيَّة الأولى: هي فرضيَّة أنَّ النصوص؛ أي آيات الكتاب متناهية والوقائع غير متناهية، وكيف تكون النصوص متناهية والله ﷻ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩).

وفي الآيتين بعدها ذكر مجموعة من الكليَّات، ليبيِّن الطريقة التي يستوعب القرآن المجيد فيها كل ما حدث أو يحدث في الحياة البشريَّة، ويقدم لها التقييم الدقيق اللائق بها كما يقدم رسول الله ﷺ النماذج العمليَّة للتطبيق، ومن هنا فإنَّ الله ﷻ قد نص بأنَّه ما فرط في الكتاب من شيء.

والفرضيَّة الثانية: التي تثيرها هذه التراتبيَّة التي جاءت في ذلك الحديث الموضوع أنَّه لا يلجأ إلى السنَّة بحثًا عن حكم إلا عند اليأس من وجودها في الكتاب، وهذا مُنَافٍ لما تقدم، ومُنَافٍ لتلك العلاقة التي رسمها الباري تعالى، وأكدها رسوله ﷺ بين الكتاب الكريم وتطبيقاته النبويَّة.

أنَّها تحمل إشكاليَّة أخرى وهي أنَّ الاجتهاد لا يلجأ إليه إلا عند فقدان الحكم في الكتاب والسنَّة في حين أنَّا نعلم من أدلة الشرع أنَّ الواجب الأول على الإنسان هو معرفة الله ﷻ وهذه المعرفة تبدأ بالنظر العقليّ مرورًا بالنظر في دعوى النبيّ ومعجزته للوصول بعد ذلك إلى الإيمان والتسليم بما جاء به النبي ﷺ.

وحين تدرك هذه الحقيقة، وتؤخذ بهذا الشكل، نكتشف أنَّ معظم الجدل الذي دار قديمًا، وما زال يدور، حول حُجِّيَّةِ السنَّة واستقلالها بالتشريع، وكونها

= بمتصل." وقال البخاري في تاريخه: "الحارث بن عمرو عن أصحاب معاذ وعن أبي عون: لا يصح ولا يعرف إلا بهذا"... قال ابن حزم: "لا يصح؛ لأنَّ الحارث مجهول وشيوخه لا يعرفون." قال: "وادعى بعضهم فيه التواتر، وهذا كذب، بل هو ضد التواتر لأنَّه ما رواه أحد غير أبي عون عن الحارث"... وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: "لا يصح وإنَّ الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم ويعتمدون عليه، وإن كان معناه صحيحًا..." انظر أيضا:

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد. **تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة: (د. ن.)، ١٩٦٤م، ج٤، ص٢٠٦.

قاضية على الكتاب أو كون الكتاب يقضي عليها، أمور حدثت نتيجة الخلط بين تلك الحقائق والطاقات الإنسانيَّة عند المتعلم، والتي تفرض عليه التدرج في تعلم الأهم فالمهم.

ولقائل أن يقول: إنَّ المجتهد إذا عالج قضيَّة ما فإنَّه يجمع سائر ما يصل إليه من أحاديث متعلقة بها، ويقوم بتصنيفها ودراستها، ومعرفة ناسخها من منسوخها، ومطلقها من مُقَيَّدِهَا ومُجْمَلِهَا ومُبَيِّنِهَا ونحو ذلك، وذلك يعني أنَّ القراءة كانت قراءة كليَّة، فلماذا توصف بالجزئيَّة؟

والجواب على هذا، أنَّنا لم نقصد بالقراءة الكليَّة هذا الاتجاه، فبالرغم من أنَّه يبدو للوهلة الأولى كليًّا، لكنَّه في الحقيقة لا يدور حول كليَّات السنَّة وكليَّات القرآن، بل يدور حول كليَّة ترتبط بجزئيَّة أو بسؤال فقهيّ مباشر، نحن نريد بالكليَّة "الكليَّات العامَّة" و"القيم المطلقة". وهذه الكليَّات والقيم إنَّما تكتشف من خلال النظر إلى الوحي في كليَّته وغائيَّته ومقاصد الحق من الخلق، والفكرة الكليَّة عن الكون والإنسان والحياة، والقيم الحاكمة، وهي التوحيد والتزكية والعمران، ثم العدل والحريَّة وتحقيق الضروريَّات الإنسانيَّة والحاجيَّات والتحسينيَّات، فهذه هي الأمور الكليَّة التي تدفع ملاحظتها إلى تشكيل الضوابط والكشف عن الكامن والمحددات المنهجيَّة، كما أنَّها هي التي تكشف عن المبادئ العامَّة للوحي، لِتُعِينَ المجتهد والباحث بعد ذلك على إدراج الجزئيَّات في إطار الكليَّات وفهمها في ذلك الإطار، لكن تجاوز هذه الطريقة إلى القراءة بالنموذج الفقهي وحده ربما ساعد على عدم بروز الحاجة للوصول إلى "القراءة المنهجيَّة الكليَّة".

٣- تفرد منهجيَّة الإسناد

لقد عُدّتْ مَنْهَجِيَّةُ الإسناد قِمَّةً لا تعلو عليها مَنْهَجِيَّةٌ أخرى، فيما يتعلق بتصحيح السنة النبوية، على اعتبار أن الأنظار تركزت على السنة بوصفها نصوصًا وألفاظًا وعبارات حديثية منضبطة، مثل آيات القرآن الكريم، ومن ثمّ فإذا صح

السند فينبغي أن ينقطع كل حديث عما عدا ذلك. وكان الأمر يقتضي أن تعطى لمقاييس نقد المتون، وهي مقاييس معرفية دقيقة أسسها علماء الحديث أنفسهم، فرصة التكامل مع منهجية الإسناد، لتنفتح آفاق التفكير على السنة النبوية لا باعتبارها نصوصًا مُجَزَّأَةً، بل باعتبارها طريقة حياة بالقرآن الكريم، وطريقة تنفيذ وتجسيد لِقِيَمِهِ وَتَعَالِيمِهِ. هذه الثقة التي مُنِحَتْ لمنهجية الإسناد بُنِيَتْ على فرضية أن القرآن الكريم استمد قَطْعِيَّتَهُ من النقل المتواتر له من جيل إلى من تَلاهُمْ، والحق أنَّ القرآن حفظه الله تعالى من داخله بِنَظْمِهِ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سواء تَكَاثَرَ نَقَلَتُهُ أو قَلُّوا، فإن ذلك لا أَثَرَ له في عملية تَوَاتُرِهِ وحِفْظِهِ وَعِصْمَتِهِ وَقَطْعِيَّتِهِ.

ولو أنَّ المَعْنِيِّينَ من علماء الحديث عَمِلُوا ما عَمِلَهُ كَثِيرٌ من الفقهاء فالتزموا المَنْهَجَيْنِ معًا بطريق سليم بحيث يمر الحديث من خلال منهجية السند للكشف عن صحة سنده أو ضعفه، ثم يمرر متن الحديث ذاته من خلال منهجية نقد المتون ومقاييسها، لِغَرْبَلَةِ تلك الأحاديثِ، وَوَزْنِ مُتُونِهَا بِالمَوَازِينِ التي تَنْبَثِقُ عن اتجاهات القيم الحاكمة في الإسلام، وهي التوحيد، والتزكية، والعمران، ولو أُتِيحَ لِلمَنْهَجَيَّتَيْنِ أن تَعْمَلا معًا، وتَسْتَمِرَّا وَتَتَطَوَّرَا -معًا- لما كان هناك كَبِيرُ جَدَلٍ حول ما عرف بـ"مختلف الحديث"، أو حول "الحجية" ذاتها، ونُشُوءِ فِرَقٍ من المُبْتَدِعَةِ الذين قد يطلقون على أنفسهم "القرآنيين"، وما هم "بقرآنيين"، فالقرآني الحق لا يمكن له أن ينكر السنة، أو يحكم فيها تأملاته وأهواءه، يقبل ما يعجبه وينكر وما لا يعجبه.

إنَّ معظم الجدل القائم بين المعاصرين هو جدل يقوم على تجاهل إحدى المَنْهَجِيَّتَيْنِ، فهناك من يأخذ بِمَنْهَجِيَّةِ الإِسْنَادِ، فإذا صح السند عنده لم يسمح باستعمال مقاييس نقد المتون أو لم يلتفت إليها؛ لأن السند قد صح عنده "فاجتاز الحَدِيثُ القَنْطَرَةَ" وانتهى الأمر، ولم يعد هناك مَجَالٌ للحديث في الموضوع، وَبَعْضُهُمْ يَتَجَاهَلُ الإِسْنَادَ، ولا يهمه أن يكون مَنْ أخرج ذلك الحديث البخاري أو مسلم أو الطبراني أو ابن ماجه أو سواهم، فيخضعه لمقاييس نقد المتون دون

التفات إلى السند، وأحيانًا قد يتجاوز بعضهم هذه المقاييس التي لم يطورها بعد عصور الاجتهاد أحد، ليخضع الأحاديث إلى مقاييس قد تبدو للآخرين أنها تعتمد على الهوى، وعلى رُؤَى شَخْصِيَّةٍ لا قِيمَةٍ عِلمِيَّةٍ لها، وهذا ما لا ينبغي لطالب علم الوقوع فيه.

ولا يمكن الخروج من هذا الإشكال دون إعادة النظر والقيام بدراسة نقدية تحليلية شاملة لمنهجية الإسناد، ومنهجية مقاييس نقد المتون وعلاقتهما بالسقف المعرفي التاريخي الذي انبثقا في ظلاله، ورصد تطور هاتين المنهجيتين، ودراسة جهود المحدثين في استعمال كل منهما، أو استعمالهما معًا، ومعرفة الأحاديث التي لم تخضع إلا لأحدهما، ثم القيام بعملية تتبع تاريخي لتطور هاتين المنهجيتين، وفترات التوقف والانقطاع في تطوير كل منهما واستعمالهما لدى الفقهاء والأصوليين؛ إذ إنهما مرَّا بمثل الأطوار التاريخية التي مر بها "علم أصول الفقه" أو سواه من أدوات ووسائل الاجتهاد. كما أن دراسة وتحليل النصوص المختلفة يمكن أن ييسر السبيل إلى إعادة النظر في هذه المناهج وترتيبها، بحيث تساعد على إعادة بناء العلاقة بشكل سليم بين الكتاب الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ويبدو أنَّ أئمة الحديث، سواء أولئك الذين اهتموا بالأسانيد، والمتون، وبالتاريخ، ومعرفة الرجال، أو بالعلل وقضايا الجرح والتعديل، أو بأي جانب آخر من هذه الجوانب، عدّوا أن أبرز الأسئلة وأقوى القضايا التي عرضت عليهم قضية الوضع، وكيفية التخلص منه بوصفها أبرز التحديات التي واجهتهم بعد الفرقة، فانصب اهتمامهم وتركيزهم على قضايا التصحيح وبناء منهجية الأسانيد، والروايات والعمل على جعلها الضابط الأساسي، ولم تُعْطِ الأُمُورَ الأُخْرَى، ومنهما ما نعدّه تحديات معاصرة -الاهتمام المطلوب- لكنها لم تكن قضايا مطروحة بالنسبة إليهم، ولكنها في وقتنا هذا لا بد أن تصبح جزءًا من دراساتنا في علوم الحديث.

ولذلك فإنَّه حين برزت مشكلة ما عرف بـ"مختلف الحديث"؛ أي الأحاديث التي تبدو وكأن فيها نوعًا من التعارض، برزت اتجاهات التأويل، تأويل تلك الأحاديث التي ثبتت صحتها، ولكن وردت عليها بعض الأسئلة فيما يتعلق باللفظ أو المعنى، وكتب أهل العلم في هذا كُتُبًا لا يزال بعضها متداولاً مثل كتاب "تأويل مختلف الحديث" لابن تيمية، و"تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة.

كل هذه القضايا تجعل من الضروري إعادة النظر في علوم الحديث المتوارثة في ضوء كل ما تقدم، والعمل على وضعها في الإطار السليم بتحقيق التواصل بين قضاياها وإخضاعها للتحليل، والتمحيص، والنقد، والتفكيك، وإعادة التركيب، فذلك هو الذي سيساعد -إن شاء الله- على تحديد العلاقة بدقة بين الكتاب والسنة من ناحية، ثم تحديد العلاقة بين الكتاب ومعارف التراث الإسلامي من ناحية أخرى، والتمكن من تجاوز القراءات التجزيئية وإشكاليات الفهم، والخروج من دائرة الجدل حول الحُجِّيَّةِ بمستوياته المختلفة، لجعل السنة مصدرًا يتعاضد ويتكامل مع المصدر المنشئ "القرآن الكريم"، لإرساء دعائم القِيَم الحاكمة: التوحيد، والتزكية، والعمران، وبيان القِيَم المُتَفَرِّعَةِ عنها من عدل وحرية ومساواة، وأمانة ونحوها، وتحقيق الضروريات والحاجيات والتحسينات الإنسانية، وبناء المعرفة الإنسانية بناءً سليمًا.

وفي هذه الحالة تشتد الحاجة إلى دراسات تاريخية جادة تتناول بالدراسة والنقد والتحليل موروثاتنا المعرفية، وتراثنا في علوم القرآن والسنة النبوية للخروج بالتصورات المناسبة حول المصدرين الأساسيين، وطرائق التعامل مع كل منهما.